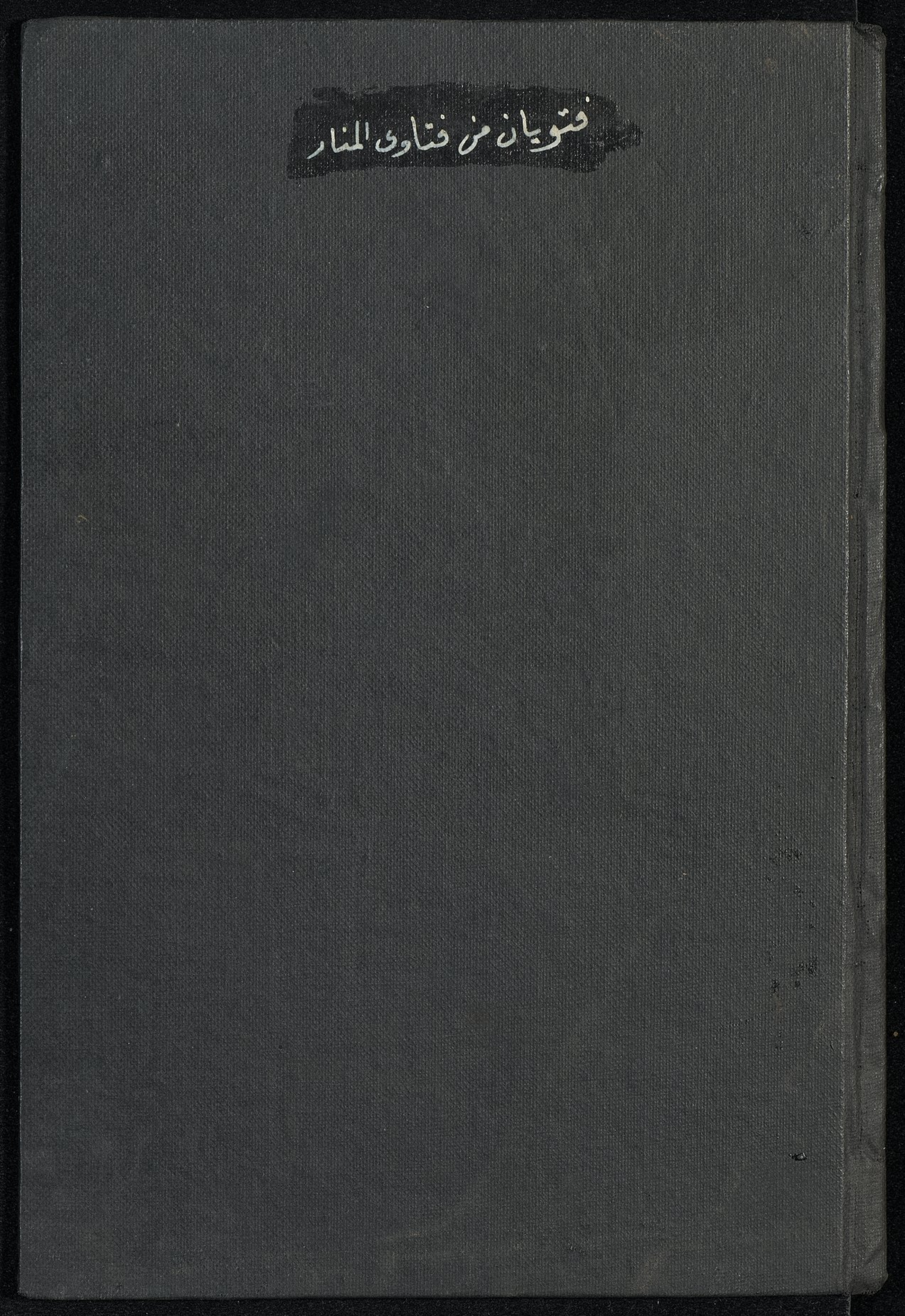
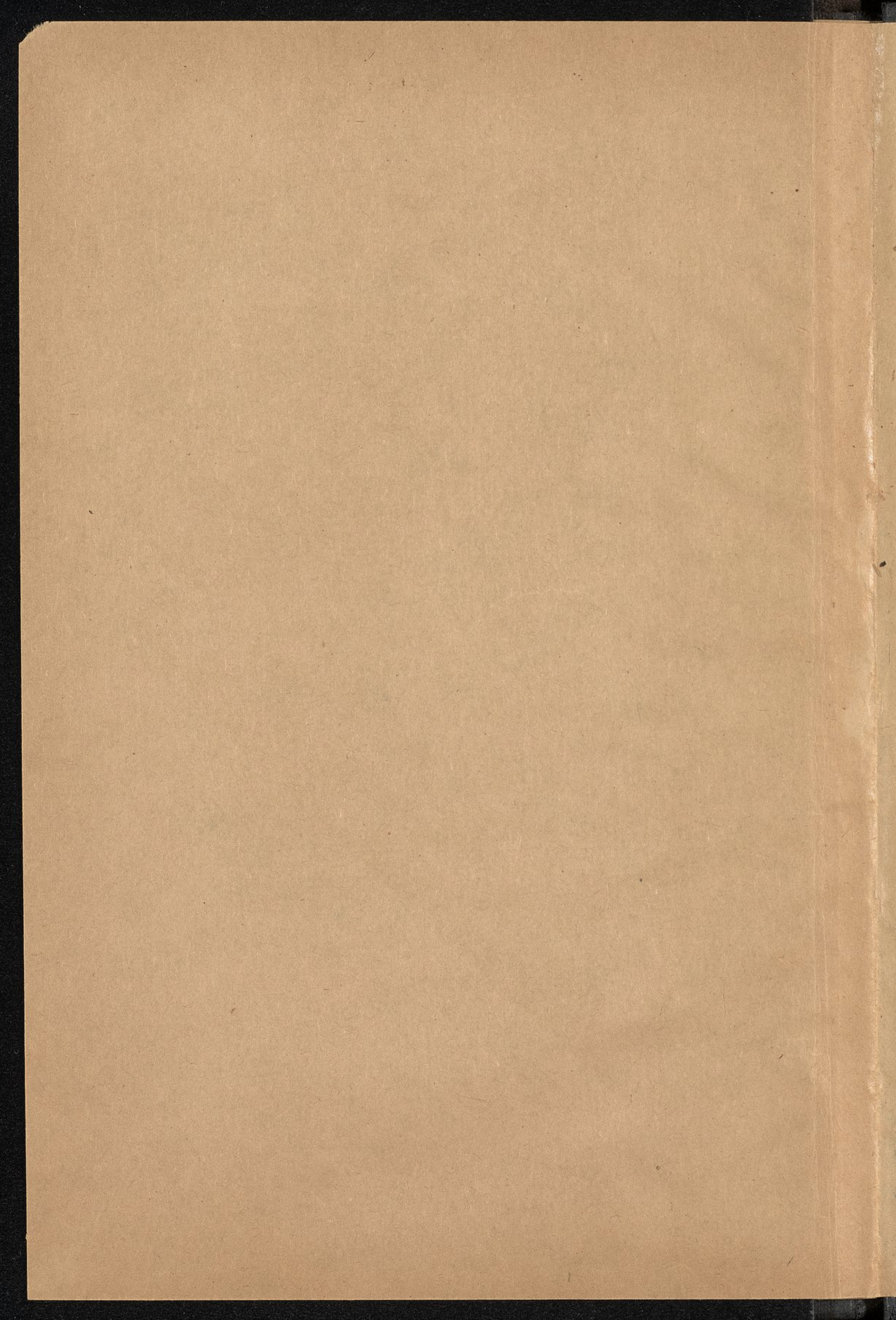

فتويان من فتاوى المنار

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





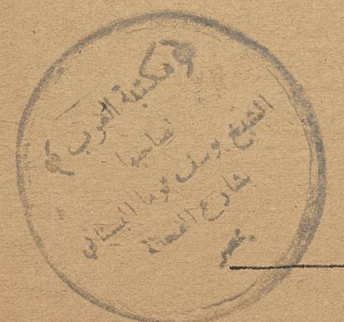
893.799
F269

فتويان من فتاوى المنار الاصلاحية

في حقيقة الايمان والشرك والسنة والبدعة
ومذاهب المتكلمين والفقهاء والصوفية

نشرتا في المجلد الثاني والعشرين

الطبعة الاولى



بمطبعة المنار بمصر ١٣٤٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه ،

أما بعد فان الله تعالى قد خلق الانسان في أحسن تقويم ، وجعل مدار سعادته وشقائه على التربية والتعليم ، إذ خلقه ذا قدرة وارادة واختيار ، وفطره على أن يرجح من الاعمال مايعتقد أنه الانفع له عند تعارض المنافع والمضار ، فمتى كان علمه الوجداني الذي هو أثر التربية أو النظري الذي هو أثر التعليم والتفكر صحيحاً اختار الاعمال التي فيها سعادته ، ومتى كان غير صحيح اختار الاعمال التي فيها شقاوته ، ولما كان تحديد الاعمال النافعة والضارة ، فيما ينبغي لسعادة الدنيا والآخرة ، منها ماهو فوق الطاقة ، ومنها مالايتم تحديده الا بعد طول البحث والتجربة ، أنعم الله تعالى على أفراد من هذا النوع بايتائهم مايتوقف إكمال الفطرة البشرية على علمه ، وجعلهم رسلا منه لتبليغ ذلك لخلقه ، فكان من اهتدي بهم أسعد الناس في هذه الحياة العاجلة ، وسيكونون أسعدهم في الحياة الآجلة ،

أنعم الله تعالى بهؤلاء الهداة على جميع الامم والشعوب ، (ولقد أرسلنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، فكان الناس يهتدون بما جاؤا به بقدر استعدادهم ، ثم يحرفونه وينحرفون عنه كلما طال العهد على هديهم وارشادهم ، حتى يتحول التوحيد شركا ، ويجعل الحق باطلا والباطل حقاً ، فقدماء العرب في جزيرتهم وفي العراق ومصر وسورية كانوا على التوحيد ، وكذلك الفرس والهند والصين ، وسائر أمم العالم القديم والعالم الجديد ، تتخلل أساطير عادياتهم عقيدة توحيد الله وعبادته ، وإقامة الحق والعدل في خلقه ابتغاء مرضاته ، واستعداداً للجزاء في يوم لقائه ، وتلك أصول دين الله ، على ألسنة جميع رسل الله ، (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون)

وما زال أولئك المبشرون والمنذرون عليهم صلوات الله وسلامه يتعاقبون في الامم فيقوى بهديهم استعدادها العام لقبول هداية عامة كاملة ، حتى أعد الله هذا النوع للحياة الاجتماعية العامة ، فبعث لجميع أممه، خاتم أنبيائه ورسله ، وأكمل تعالى على يديه الدين ، وجعله رحمة للعالمين ، وتكفل بحفظ كتابه من الضياع كما ضاعت كتب الأولين ، ومن التحريف والتبديل وانقطاع السند كما وقع لكتب المتوسطين ، ووفق أتباعه لحفظ سنته ، وتاريخه وتاريخ حملة شريعته ، وناشري دعوته ، حتى يكون حجة الله البالغة على جميع العالمين ، وينحصر الابتداع فيه والضلال عنه في عمل الجاهلين والمتأولين ،

انتشر دين خاتم الرسل في جميع الامم ، بسرعة لم يعهد لها نظير في تاريخ البشر ، بأنه دين الفطرة ، والملة الحنيفية السمحة ، ثم عرض لاهله المختلفين في الاجناس ، ماعرض لسائر الذين تفرقوا واختلفوا قبلهم في الاديان ، ففرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وسلكوا فيه طرائق قددا ، وعسروه بعد أن يسره الله وأمرهم رسوله بالتيسير ، ونهاهم عن التعسير ، حتى صار طريق معرفة عقائده وأحكامه العملية وآدابه النفسية ، يتوقف على صرف السنين الطوال في مدارسة كتب المتكلمين والفقهاء والصوفية ، الذين يضلل بعضهم بعضا بعصبية المذاهب ، واختلاف الآراء والمشارب ، بعد ان كان يتلقاه الاعرابي راعي الابل والغنم من النبي أو أصحابه في مجلس واحد ، وقصر كل فريق من المتأخرين القاصرين على كتب شيوخ مذاهبهم وطرائقهم من المتأخرين ، وحرموا على الناس تلقيه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فضاع بذلك العلم والدين ، وساءت حالة عامة المسلمين ، وغلبت البدع ، وتحكمت أهواء الشيع ، الى أن قيض الله بعض المجددين في هذا العصر ، الذي تجددت فيه لهم حرية النظر واستقلال الفكر ، فأهابوا بهم أن عودوا أيها المتفرقون الى كتاب ربكم وسنة رسولكم ، وسيرة سلفكم ، ووحدة أمتكم ، فقد ذهب اختلاف المذاهب وتعدد الشيع بهداية دينكم ومجد دولتكم ، وجعلكم أعواناً لاعدائكم على أنفسكم ، فكلام الله وكلام رسوله أكمل بيان قولي ، وسنة رسوله والمهتدين بها من أهل الصدر الاول أكمل بيان فعلي ، فمن زعم أن هداية الاسلام تتوقف على من بعدهم ممن جاء بعدهم من الفقهاء والصوفية والمتكلمين ، فقد فضل هؤلاء على النبي والصحابة والتابعين ، وهذا

NOV 1934

باطل بل خروج من الملة والدين ، وإنما علماء الدين في كل زمان ، هم الذين يبينون كتاب الله وسنة رسوله للناس ، ولا يستغنون عنها بنظريات المتكلمين ، ولا بظنون الفقهاء المجتهدين بله المقلدين ، ولا بأذواق المتصوفة وأحوال المتعبدين ، بل يجب اعتصامنا بحبل الله متصلا لا تفصلنا عنه الادلاء ، وتأسينا برسوله مباشراً لا يحجبنا عنه الاولياء ، ولم يجز أحد من أئمة هذه الامة لنفسه ولا لغيره أن يكون فهمه دينا يقلد ، واجتهاده شرعا يتبع ، لان الدين لله والشارع هو الله ، ومن يتبع رأيه في العبادة أو الحلال والحرام فقد اتخذ ربا وشريكا لله ، (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ؟* اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون)

اهتدى بهذه الآيات البينات كثيرون ، فهم بكتاب الله وسنة رسوله يهتدون ، وبما كتب ويكتب العلماء في بيانهما يستعينون ، وهم ولله الحمد يزيدون ولا ينقصون ، ولا يضرهم ما يؤذيهم به المقلدون الجامدون ، وهم الاكثرون ، ومنهم الرؤساء الرسميون ، والاغنياء والموظفون ، وقد « بدأ الاسلام غريبا » وكان اول السابقين اليه المستضعفون ، ثم عاد غريبا كما بدأ و(كما بدأكم تعودون)

ولما كان المنار هو الناشر لدعوة الاصلاح الاسلامي في الآفاق على أساس إحياء السنن ، وإماتة البدع ، والرجوع في أمر الدين الى عهد الصدر الاول ، والاخذ في الترقي الدنيوي بأحدث ما أثبتت العلوم والفنون من أسباب القوة وحفظ الصحة ، وتوفير الثروة — كثر رجوع أهل البصيرة المستجيبين لهذه الدعوة اليه ، فيما يختلفون مع المقلدين من أهل الغفلة فيه ، من مسائل الايمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، والمشروع والمبتدع ، فيفتيهم فيها بما هو أقوم قيلا واصح دليلا ، مهتديا بقوله تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وقد رأينا اجابة لرغبات الكثيرين أن ننشر بعض هذه الفتاوى في رسائل خاصة ، عسى أن تصل الى غير قراء المنار فتكون فائدتها عامة ، فبدأنا منها بنشر فتويان من فتاوى المجلد الثاني والعشرين في هذه الرسالة ، فعسى أن ينتفع بها الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . والصلاة والسلام على محمد خاتم أنبياء الله ، وآله وصحبه ومن والاه. أما بعد فانني قد سألني بعض الموحدين في دمياط عن حكم الاقتداء في صلاة الجماعة بمن يتخذون بينهم وبين الله تعالى شفعاء ووسطاء يدعونهم لكشف الضر عنهم وجلب الخير لهم مع العلم بان «الدعاء هو العبادة» كما ورد في الحديث عند أصحاب السنن الاربعة وغيرهم وصححه الترمذي وحسنه وكذا الحاكم ووافقهما النووي من حديث النعمان بن بشير وفي رواية للترمذي من حديث انس «الدعاء مخ العبادة» وهي من طريق عبد الله بن لهيعة ويؤيده حديث النعمان. وقد أجبت عن هذا السؤال بجواب مطول وأيدته بنقول نافعة وأحببت أن أجرد ذلك من المنار وأطبعه في رسالة خاصة لتعميم نشره عسى أن ينفع الله تعالى به الغلاة في الدين ، الذين يسارعون في تكفير المسلمين . اذا خالفوا الحق المبين . وان كانوا جاهلين أو متأولين . وينفع متبعي البدع. وتاركي السنن، ومتنكبي هدي السلف . غروراً بأقوال بعض المتصوفين . واحتجاجا بأقوال بعض المؤلفين الذين لاحجة فى قول أحد منهم في الدين . باجماع المسلمين . وأبدأ بالسؤال الوارد والجواب عنه فأقول

﴿ الاقتداء في الصلاة بمتخذي الوسطاء والشفعاء عند الله ﴾

(وما يتبع ذلك من حقيقة الاسلام والارتداد عنه)

(س٢) جاءنا السؤال الآتي من جماعة الموحدين في (دمياط) ومعه عنوان واحد منهم لنجيبه به فرأينا أنه يجب نشره والجواب عنه في المنار وهو :-

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد رشيد رضا صاحب ادارة المنار العامرة

تحية اخلاص تحدوها اليكم روح الاسلام وبعد فلما كانت ثقتنا لاتنحصر بغير عالميتكم لسعة اطلاعها بنور الاله الواحد الهادي الى الصراط المستقيم سيما في معضلات الامور التي يتوقف صلاح الدين عليها . رجونا كم للسؤال الآتي وهو (هل تصح الصلاة خلف متخذي الشفعاء والوسائط من مسلمي هذا الزمان أم لا تصح)

وفي الختام نلهج جميعا بتكرار الرجاء ونردده باسم الدين الاسلامي الحنيف ان

لا يضن الاستاذ الامام على طائفة تقلب وجهها في السماء لهفا بالجواب على هذا السؤال وافيا. هذا وان أمكن الاستاذ الامام نشر الجواب في المجلة الطائر ذكرها بين أقطار المشارق والمغارب فبها ويا حبذا والا فنرجوه جميعاً أن لا نحرم من الرد بالعنوان طيه ولكم من الله تعالى الشكر والاجر ان شاء الله والسلام — الموحدون بدمياط

جواب المنار

(ج) الظاهر أن السائلين يعنون بمتخذي الشفعاء والوسطاء عند الله من يصدق عليهم قوله تعالى في مشركي العرب (ويعبدون من دون مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وانهم مرتابون في الاقتداء بهم في الصلاة مع هذا الشرك الصريح لانهم يأتونه عن جهل ويحسبون أنه طاعة لله وعمل بدينه وهم مؤمنون اجمالا بالله وبأن كل ماجاء به عنه خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم فهو حق. وايمانهم بذلك ايمان اذعان لانهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون بيت الله من استطاع منهم اليه سبيلا. فموضع الاشكال على هذا مايصدر عنهم من العبادة الشركية لغير الله تعالى كدعاء الموتى من الصالحين والتمسح بقبورهم والطواف بها وببعض النبات والجماد لشفاء الامراض وتفريج الكروب وتوسيع الرزق وغير ذلك من الاعمال والاعتقادات المنافية للتوحيد الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو ان لا يعبد الا الله وان يخلص له الدين وحده فلا يدعى معه أحد — هل هي من أعمال الشرك المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة فلا يعذر الجاهل بها كما يقول المتكلمون والفقهاء أم هي مما يخفي على غير العلماء الاعلام، العارفين بحقيقة ما كان عليه الصدر الاول من قواعد الاسلام، فيعد الجاهل بها والمتأول فيها معذورا واسلامه وما يترتب عليه من الاعمال صحيحا؟ ثم اذا كان أس الدين مما يعذر جاهله هو توحيد العبادة واخلاصها لله تعالى بالتوجه اليه فيها وحده ولاسيما الدعاء الذي هو مخها ولبابها فاي قاعدة من قواعده أو ركن من أركانه المبنية على هذا الاس لا يعذر الجاهل به أو المتأول له؟ واين اجماع الامة على أن التوحيد الخالص شرط لصحة الصلاة والصيام وسائر العبادات لا يعتد بشيء منها بدونه مع سائر أصول الايمان القطعية المعلومة من الدين بالضرورة؟

اننا نعلم بالاختبار الدقيق ان كثيرا ممن يدعون غير الله تعالى يجهلون كثيرا

من هذه الاصول الاعتقادية والعملية وأن منهم من التاركين لاركان الاسلام كلها أو بعضها والمرتكبين لكبائر الاثم والفواحش المصرين عليها بدون مبالاة بأمر ولا نهي ، ولا انتفاع بذكرى ولا زجر ، ومنهم من اعتاد بعض الاعمال الدينية المشروعة والمبتدعة اعتيادا ولكنه لا يعرف الخشوع والخوف والرجاء الا عند تلك القبور وذكر أصحابها أو نحوهاما يعظمون تعظيم عبادة وتدين وان لم يسموه كله أو بعضه عبادة. ومن هؤلاء وأولئك الذين يدعون هؤلاء الموتى خاشعين معتقدين أنهم يقضون حوائجهم بأنفسهم ولا يخطر في بالهم غير ذلك، ومنهم من يسمى دعاءه توسلا واستشفاعا ولا سيما اذا أنكر عليه. وهذا عين ماحكاه القرآن عن مشركي العرب ولم يعتد بايمانهم حتى يتركوه وقال فيهم (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) ومن هؤلاء الذين يعدون هذا تأولا المذعنون للامر والنهي الملتزمون للفرائض المتأثمون من المعاصي وفيهم وقع الاشكال فيما يظهر لان تكفير المؤمن المتأول المعين فيه خطر عظيم ولا سيما في هذا الزمان الذي ترك أكثر أهله علم الدين على الوجه الذي كان معروفا عند سلف الامة أهل الحق . واننا نمهد للجواب التفصيلي الشافي تمهيدا نراه ضروريا فنقول

(١) ان قواعد العقائد وأصول الايمان واحكام الاسلام والردة المجمع عليها والمسائل الاعتقادية والفرعية المختلف فيها كلها مقررة في الكتب وان على كل مسلم مكلف أن يعرف الفرائض العينية منها وان يبذل جهده في تطبيق الوقائع والنوازل التي تعرض له على ماعرف ، ومن ذلك الجهد سؤال العارفين واستفتاء المفتين فيما يشكل عليه من ذلك الى أن يهتدي الى الحكم المنطبق على الواقعة — فهذا اجتهاد عملي يطالب به العوام كالعلماء كالاجتهاد في القبلة في حالة البعد عن الكعبة المشرفة وعدم المحاريب المتواترة. وان لاحوال الزمان والمكان تأثيرا عظيما في هذا الاجتهاد العملي من مظاهره انك ترى الناس يستنكرون البدع عند ظهورها أشد الاستنكار وربما بالغوا في ذلك فجعلوا المباح محظورا كالبدع في العادات والماعون والازياء وكم كتب بعض المشتغلين بالعلم رسائل وكتبا في تحريم بعض هـذه المستحدثات في أول العهـد بظهورها كالاحذية الشائعة التي تسمى في مصر بالجزم (جمع جزمه) وفي الشام بالكنادر والسكاربيل ومنها ما يسميه الفريقان (البوتين) (البوط) واذا شاعت المنكرات الدينية وعمت

تصير عند الجمهور كالمباحات بل يجعلون بعضها في عداد المسنونات والشعائر الدينية لا سيما في هذا الزمان الذي ترك فيه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في اكثر البلاد التي يقطنها المسلمون بل صار كثير من المحظورات المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة من المباحات في حكم القانون المتبع كالربا والزنا وشرب الخمر . فمن يعيش في أمثال هذه البلاد لايكون نظره في تطبيق الاعمال على القواعد والاحكام الشرعية كمن يعيش في بلاد نجد التي لايكاد يرى فيها شيئاً من أمثال هذه المنكرات فاشيا مألوفا ولا يسمع فيها بحكم من حاكم غير مستند الى نص من كتب الفقه المعتبرة، لذلك ينقل عن بعض عوامهم تكفير مرتكب بعض المعاصي ولو غير قطعية وفي مصر لا يكفر التارك لجميع أركان الاسلام والمستبيح لا كبر الفواحش بالاصرار على المجاهرة بها بلا مبالاة

(٢) قد اختلف مصنفو الكتب الكلامية والفقهية اختلافا واسع النطاق في مسائل الكفر والردة من حيث الادلة ومن حيث تطبيقها على الاعمال والناس وناهيك بتشديد من ناطوا هذه المسائل باللوازم القريبة والبعيدة للاحكام القطعية أو الظنية القوية كمن كفروا من حقر عالما أو قال أو فعل ماينافي احترام كتاب شرعي أو فتوى شرعية بالالقاء على الارض أو القول ببطلان الفتوى أو عدم قبولها اذ عدوا ان اهانة الفقيه أو فتواه أو الكتاب تستلزم إهانة الشرع وان عدم الاذعان والاحترام للفتوى يستلزم رفض الشرع والدين ، وقد يعدون من الاهانة وعدم الاحترام ماليس منه في الواقع أو في عرف الفاعل وقصده . ويوجد في هذه الكتب ولا سيما تصانيف المتأخرين منها من الاقوال مالا يمكن اثباته شرعا وفي بعضها تأييد للبدع المخلة بأصول الدين وفروعه

(٣) قد وقع من جراء ماذكرما نراه ونشكو منه في هذه البلاد من الفوضى في العلوم الدينية وفي تطبيقها على الاعمال المجرئة لاحد المنتمين الى طريق المتصوفة الغارقين في البدع على كتابة رد على فتوى لشيخ الازهر ورئيس المعاهد الدينية بالباطل حاول فيه جعل البدعة التي انكرها الشيخ بالدليل دينا متبعا وعبادة مشروعة واستدل على ذلك بأحاديث لاتدل عليه ولا هي بصحيحة فيستدل بها على فرض دلالتها على ماذكر — ونشر رده الباطل في صحيفة يومية مشهورة قرأها ألوف من الناس وسكت علماء الازهر على ذلك الى ان انكره على المتصوفي بعض أهل الغيرة من الاسكندرية كما علم ذلك من جزء المنار (ج ١ م ٢٢)

ذلك بأن شيخ الازهر — وان كان رئيس علماء الدين في الازهر وسائر معاهد التعليم الديني في هذا القطر — ليس له رياسة دينية مطاعة عند المسلمين فيما يأمر به أو ينهى عنه أو يفتي به وان وافق الحق لا شرعا ولا قانونا ولا مواضعة عرفية وليس من أعمال مشيخة الازهر نشر الدين بتلقين عقائده وآدابه وأحكامه لعامة المسلمين المكلفين بطريقة منتظمة فيكون من أثر ذلك أن السواد الاعظم قد تلقى دينه عن مصدر واحد موثوق به بحيث نجزم بأن كل ما كان معلوما من الدين بالضرورة في صدر الاسلام وسائر القرون التي جزم فيها علماء الاصول والفروع بأن من جحد شيئا مجمعا عليه من هذه المعلومات يكون كافرا . بل نعلم بالاختبار أن السواد الاعظم من المسلمين في هذه البلاد أميون وأن المتعلمين في غير المعاهد الدينية من الاهالي أكثر من المتعلمين فيها، فأما الاميون فاكثرهم لم يتلق عقيدته من عالم ولا متعلم بل يسمع بعضهم من بعض أقوالا وأمثالا وحكايات بعضها من عقائد الايمان وبعضها من أضاليل أهل الكفر وخرافات أهل الشرك ، وأما المتعلمون في المدارس الدنيوية فكثير منهم تعلموا في مدارس دعاة النصرانية التي انشئت لتحويلهم عن دينهم ، ومنهم من تعلموا في مدارس الحكومة وغيرها أو في أروبة. وجميع المدارس الدنيوية يبث فيها من التعاليم ما ينافي الدين أو يوقع الريب في بعض عقائده ولا يكاد يوجد فيها مدرسة يلقن المسلم فيها أصول دينه على الوجه الحق المؤيد بالدلائل التي تدحض الشبهات الواردة عليه من العلوم الاخرى. وأما المتعلمون في الازهر وما يتبعه من المعاهد فاكثرهم يجيء من بلاد الارياف ومزارعها متشبعا بما عليه العوام من الخرافات والاوهام فتمر عليه السنين وهو يعالج مبادئ النحو والفقه التي لا تنزع من نفسه شيئا من الخرافات والبدع التي عرفها وألفها ثم يحضر دروس العقائد المعروفة في هذه المعاهد وهي مختصرات أو مخلصات من كتب جدلية جافة فيما يجب اعتقاده في الايمان بالله ورسله واليوم الآخر تحرك الشبهات ولا تكاد تزيد مدارسيها إيمانا ولا عملا صالحا ولا تمييزا للبدع من السنن ولا ترغيبا في طلب رضوان الله وترهيبا من عقابه ، وقد يوجد في بعضها مدح لاتباع السنة وسيرة السلف وذم لما ابتدع بعدهم كقول الجوهرة

وكل خير في اتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف

ولكن لم يذكروا في شروحهم وحواشيهم عليها خلاصة ماحوت دواوين السنة

من أحاديث الاعتصام وآثار الصحابة فيه ولا ماورد عن السلف من اجتناب البدع والزجر عنها ، بل لاتخلو أمثال هذه الشروح والحواشي مما يخالف السنة ويؤيد البدعة وأهلها عن قرب أو بعد كاحتجاج الراد على فتوى شيخ الازهر في هذه الايام بما في بعضها من قولهم ان «اه» من اسماء الله تعالى كما يوجد ذلك في بعض كتب الفقه والفتاوي أيضا ، ومنه قول بعضهم باستحباب وضع الستور على قبور الصالحين قياسا على ستر الكعبة والقائل بهذا ليس من أهل القياس الاصولي الاجتهادي الا أن يكون القياس الشيطاني الذي يهدم نصوص الكتاب والسنة ، ويبني بانقاضها صروح البدعة ، فقد صحت الاحاديث بحظر تشريف القبور وبناء المساجد عليها ووضع السرج والمصابيح عليها ولعن الذين اذا مات الرجل الصالح فيهم اتخذوا على قبره مسجداً . ومقتضى هذا القياس أن هذا مشروع محبوب عند الله ورسوله عليه الصلاة والسلام وتقتضي هذه الفتوى أيضا أن الطواف بتلك القبور وتقبيلها مشروع ، وكل ذلك من عبادة غير الله تعالى وهل كان الشرك الذي بعث جميع الرسل لهدمه الا عبادة غير الله تعالى من الملائكة والانبياء والصالحين بدعائهم والغلو في تعظيمهم بما لم يأذن به الله وتعظيم ماوضع للتذكير بهم من صور وتماثيل وقبور ؟

(٤) لقد كان مثار كل هذه الفوضى والضلالات ماتبع التقليد والتمذهب من جعل جماهير الناس كل مادوّن في كتاب دينا يتبع ولاسيما بعد موت مؤلفه وعند أهل مذهبه أو أهل طريقته اذا كان منتميا الى بعض طرق المتصوفة . التقليد نفسه مختلف فيه عند الاصوليين وأهل النظر والاستدلال والتشديد في منعه في الامور الاعتقادية عظيم جدا حتى قال من قال انه لايعتد بايمان المقلد وان وافق الحق وقد ذكر ذلك صاحب الجوهرة في أول عقيدته بقوله

اذ كل منْ قلد في التوحيد ... إيمانه لم يخل من ترديد
ففيه بعض القوم يحكي الخلفا ... وبعضهم حقق فيه الكشفا
فقال ان يجزم بقول الغير ... كفى والا لم يزل في الضير

وناهيك بحال المختلف في ايمانه والعياذ بالله تعالى . والتقليد الذي اجازه من اجازه منهم وأوجبه صاحب الجوهرة هذا قاصرا اياه على الائمة الاربعة المشهورين في الفقه وابي القاسم الجنيد من الصوفية — افتياتا منه على الشرع — وهو التقليد في فروع الاعمال، انما

كانوا يعنون به تقليد العاجز عن معرفة الحكم للمجتهد الموثوق به عنده بأخذه عنه الحكم بدون دليل، وليس منه في شيء أن يجعل من الدين كل ماذكر في كتاب ولو لجاهل ليس من أهل الاجتهاد المطلق ولا مادونه كاكثر هؤلاء المتأخرين الذين لم يعنوا قط بالنظر في أدلة الاحكام وانما تآليفهم عبارة عن نقل كل مؤلف منهم لكلام من قبله مع تصرف يفسد النقل في بعض الاحيان، واكثر نقل المتأخرين عن قريبي العهد بهم ولا يكاد احد منهم ينظر في كلام المجتهدين ولا كلام أهل التخريج والاجتهاد في مذاهبهم، بل جعلوا الفقهاء طبقات أوصلها بعضهم الى ست ويقول مثل ابن عابدين الشهير انه من السادسة واهلها اسرى النقل يعني عمن قبلهم لا من الكتاب والسنة، ولا من نصوص لائمة، وهذه الطبقات حجب دون الكتاب والسنة كل طبقة تحجب مادونها عما فوقها، فالحجب بين الطبقة السادسة وبين النور المنزل من عند الله ليستضيء به البشر خمسة هي سادستها. وقد ضرب الامام الغزالي مثلا جميلا لضوء الشمس يدخل من نافذة فيقع على مرآة وينعكس عنها على جدار مقابل لها ثم ينعكس عنه الى جدار ثان مقابل له ثم ينعكس عنه الى جدار ثالث في حجرة أخرى مظلمة من بابها ثم ينعكس مايقع على هذا الجدار المقابل للباب الى جدار رابع في حجرته مقابل له ـ فالنور الذي يقع على المرآة مثل لنصوص الكتاب والسنة عند المهتدين بهما من الائمة المجتهدين وغيرهم من السلف لان الله تعالى شرع دينه وجعل كتابه تبيانا عاما لا خاصا بالأئمة وانما الائمة أقوى فهما وأوسع علما وأهدى سبيلا في الاهتداء به وتعليمه للناس. والنور المنعكس عن المرآة على الجدار الاول مثل العلم الذي يتلقاه الناس عن الائمة الذين ينقلون لهم النصوص ويشرحون لهم معانيها وما يستنبط منها، فهو نور قوي يتبين به الشيء كما هو ما دامت المرآة صافية، واما ماينعكس عن هذا النور على الجدار الثاني وما بعده فبعضها أضعف من بعض ولا تتبين بها الاشياء بجلاء تعرف به حقيقتها وصفاتها كما ينبغي بل كثيرا ماتخفى وما يقع فيها الاشتباه

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا * فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما)

(٥) يشتبه على أكثر الناس الفرق بين تلقي عوام السلف العلم والدين عن أهله وأخذ بعضهم بقول الامام بدون معرفة دليله وبين ما نخصه بالذم من التقليد

الاعمى الذي ترتب عليه ما أشرنا اليه من الفوضى الدينية وقد قلب بعض المقلدين الوضع وعكس القضية فجعلوا أقوى حججهم على وجوب التقليد وكونه مصلحة راجحة زعمهم أنه يدفع مفسدة الفوضى في الدين بادعاء الكثيرين للاجتهاد واتباع الناس لهم وهم غير أهل لذلك فيكونون ضالين مضلين فاقفال باب الاجتهاد قد درأ هذه المفسدة وقيد من ليس أهلا للاجتهاد باتباع أئمة معدودين قد ثبت اجتهادهم ونقلت مذاهبهم بالتواتر

والحق ان هذه المفسدة التي ذكروها واقعة لا ريب فيها وانما كان سببها ما سموه اقفال باب الاجتهاد أي اقفال باب الاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ورد كل اختلاف ونزاع اليهما كما أمر الله تعالى. وهذا الاهتداء ليس معناه ان يكون كل مهتد بهما إماما أهلا لاستنباط أي حكم شرعي احتيج اليه منهما، فعوام السلف الصالح لم يكونوا أئمة ولا كان الجماعات ولا الافراد منهم يلتزمون تقليد فرد معين من علمائهم، وانما كانوا كلهم عالمين بالضروري من الدين ومتفاوتين في علم غيره ومن احتاج منهم الى علم مالا يعلمه في نازلة وقعت له سأل عنها من يثق بعلمه ودينه من أهل العلم أي سأله عن حكم الله تعالى في كتابه وسنة رسوله (ص) وكان أولئك العلماء الذين هم أهل العلم بالقرآن والسنن يفتونهم بالنصوص ان وجدت والا فبما يستنبطون منها

وأما عوام الخلف الذين حيل بينهم وبين هداية كتاب ربهم وما بينه من سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام بتسميتها اجتهادا يعجز عنه البشر فهم في فوضى دينية من هذا التقليد الاعمى الذي هو عبارة عن الاخذ بقول كل من ينتمي الى العلم أو يدعيه والى العمل بكل قول يوجد في كتاب مخطوط أو مطبوع ولا سيما كتب المنسوبين الى مذاهبهم في الفقه أو الكلام أو التصوف وناهيك بكتب المشهورين منهم مهما يكن سبب شهرتهم ، ومن اختبر المسلمين في الاقطار المختلفة اختبارا صحيحا يجد انه يقل في طلاب العلوم الدينية فيهم من يعرف سيرة الامام الذي ينتمي اليه في علمه ودينه وأصول مذهبه ونصوصه في الفروع ، وانما حظهم من المذهب قراءة بعض الكتب التي ألفها بعض المقلدين المنتمين اليه على تفاوت عظيم في فهمها وعلى ما في الكثير منها من الخلط والخطأ والغلط كما أشرنا اليه آنفا ، ويا ليتهم مع هذا يعرفون ما في الكتب

المعتمدة في مذاهبهم ويعملون بما صح نقله عن المجتهدين أو من على مقربة منهم ! كلا ان أكثر العوام يقلد بعضهم بعضا في الدين وآدابه وعباداته فعلا وتركا كما علمنا ، ولا يوجد واحد في المئة ولا في الالف منهم تلقى دينه عن أحد من المنتحلين للعلم الديني على ماوصفنا من سوء حالهم ومن جهل أكثرهم بنصوص الائمة المجتهدين - كجهلهم بالكتاب والسنة؛ ولو كانوا متبعين لاولئك الائمة الكرام لجعلوا أكبر همهم تذكير الناس وتعليمهم بالكتاب والسنة وارجاع كل أمر اليهما وبذلك وحده ترتفع الفوضى الدينية أو تقل وتموت البدع أو تضعف. وأقوال المؤلفين المنسوبين الى المذاهب ليس لها من السلطان على القلوب والاقناع في العقول مثل ما لكلام الله تعالى وسنة رسوله (ص) وكلامهم متعارض لكثرتهم فاذا حاججت امرءا بقول مؤلف منهم حاجك بقول آخر يخالفه كما حاج بعض المنسوبين الى الطريقة الشاذلية شيخ الجامع الازهر بنقول كاذبة خاطئة وجدها في بعض كتبهم فيما ابتدعوه من التعبد بما يسمونه اسم الصدر، وهو اخراجهم من صدورهم صوتا مشتملا على الحرفين اللذين مخرجهما اقصى الحلق (أه)

بل أقول ان اقفال باب الاهتداء بالكتاب والسنة وتذكير الناس بهما قد فتح أبواب الزندقة والمروق من الدين لا باب الفوضى في الدين أو الفسوق فقط ، وأوسع هذه الابواب اثنان الشبهات المادية واتباع بعض الدجالين المنتمين الى التصوف المدعين أنهم عرفوا الحقيقة أو اتبعوا من عرفها بالكشف، وناهيك بطائفة البكتاشية والملة البابية والبهائية من أهل هذا الزمان كسلفهم الباطنية من الاسماعيلية وغيرهم . كل هذه الدواهي الطامة جاءت من ابتداع تلقي الدين عمن ينسب الى المذاهب المعروفة والاخذ بما يقوله أو يكتبه كل منهم أو يوجد في كتبهم من غير ان يكون تلقينا للكتاب والسنة وتفسيرا لما يحتاج الى التفسير منهما وجعل هذا التلقين هو الاصل وماقد يحتاج اليه من فتوى اجتهادية في نازلة جزئية فرعا لا يدعى اليه ولا يجعل سنة متبعة وشريعة ثابتة ولا يجعل من خالفه الى غيره مبتدعا ولا فاسقا ، ولو فعلوا هذا واستعانوا عليه بما قاله أهل العلم بالتفسير والحديث لما قطعت الصلة بين الامة وبين النور الذي أنزله الله اليها ولأُقفل بذلك باب الفوضى التي هي الاخذ بكلام كل من يعد من المعممين والمؤلفين مهما تكن أقوالهم ومصادرها ، وليس هذا هو الاجتهاد المطلق الذي أقفلوا بابه

(٧) ان هذا الدين — وان كان أصله كتاب الله تعالى وما بينه به رسوله فى أفعاله وأقواله وأحكامه — يتوقف فهم الخلف اياه على معرفة سيرة السلف الصالح من جمهور الصحابة والتابعين وحفظة السنة وعلماء الامصار في القرون الثلاثة التي هي خير القرون. ذلك بأن نصوص القرآن والاحاديث تحتمل المعاني المختلفة بضروب المجازات والكنايات فيعرض للناس فيها من التأويل ماليس مرادا للشارع، وانما كان الصحابة أعلم الناس بهذا الدين لانهم أعلم بلغة القرآن والحديث التي هي سليقة لهم، ولمشاهدتهم أعمال الرسول (ص) ووقوفهم على أحكامه في بيانه. ولذلك قال علي كرم الله وجهه لابن عباس (رض) حين أرسله لمحاجة الخوارج: احملهم على السنة فان القرآن ذو وجوه. والمراد من السنة معناها اللغوي أي سيرة الرسول (ص) وطريقته المتبعة من عهده فانها عمل لا يحتمل التأويل كما يحتمله كلامه وكلام الله تعالى وسائر الكلام. وقد نهى بعض الخوارج بعضا عن محاجة ابن عباس بالقرآن بحجة أنه من قريش الذين قال الله تعالى فيهم (بل هم قوم خصمون) يريدون أنه لا يغلب في المحاجة والمخاصمة لانه ألحن بالحجة وأبرع في مجال الغلب في الخصومة، لا انه صاحب الحق بما يثبته به من البرهان، على ان القوم كانوا مستدلين، وفيما أخطأوا فيه متأولين، وما قالوه هو تكأة المقلدين، الذين يعذرون أنفسهم في الاصرار على ما ظهر لهم من ضلالهم بجهلهم وحذق خصمهم وخلابته في القول، فالجهل عذر الجاهل العارف والمعترف بجهله وعجزه، لا المستدل الذي ينافح عن دعواه بسيفه ورمحه،

وعلماء المذاهب التي يدعي الناس اتباعها يقولون ان الجهل عذر في المسائل التي من شأنها أن تخفى على العامة وان كانت مجمعا عليها كارث بنت الابن مع بنت الصلب السدس تكملة للثلثين الذي جعله الله تعالى في الكلالة فرضا للاثنين، ولا يجعلونه عذرا لاحد في المسائل المعلومة من الدين بالضرورة — قالوا الا اذا كان قريب عهد بالاسلام أو نشأ في شاهق جبل، وهذا مبني على أن معاشرة المسلمين كافية لمعرفة الضروري من عقائد الاسلام وأحكامه في العبادات والحلال والحرام وذلك كاف في صحة اسلام من يعرفه معرفة اذعان وان جهل جميع المسائل الاجتهادية والنصوص الخفية المجمع عليها فكيف بالمسائل المختلف فيها؟ على انه لابد أن يعرف الكثير منها

ولما قال العلماء ذلك القول كانت معاشرة المسلمين كافية لمعرفة حقيقة الاسلام كما قالوا، ثم تغير الزمان، حتى صار المسلمون أنفسهم حجة على الاسلام، ويعترف بذلك خطباؤهم على منابر جوامعهم في خطب الجمعة، بقولهم « لم يبق من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه » وبقولهم « صار المعروف منكرا والمنكر معروفا » وهذا القول حق واقع ، ولكن لا يعتبر به القائل ولا السامع، وقد كان من أثره أن كثيرا من الناس حتى بعض المعممين منهم لا يطعنون بدين أحد الا المعتصم بالكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف الامة، ولا سيما اذا دعا الناس الى ذلك والى ترك البدع الفاشية ، حينئذ ينبذونه بلقب وهابي أو عدو الأئمة المجتهدين ؛ وأولياء الله المقربين، فالجهال قد اتخذوا من أسماء الأئمة والصالحين الذين هم اعداؤهم سهاما مسمومة يرمون بها أولياءهم والمتبعين لهم في الحقيقة لانهم يهتدون بالكتاب والسنة مثلهم ، — فالكتاب والسنة ليسا حجة عندهم ولا هداية لهم بل هما يردان بقول كل من الف كتابا كتب في طرته انه العلامة فلان الفلاني مذهبا ، والعلاني طريقة أو مشربا ، فاتباع الكتاب والسنة عندهم ضلال بل ربما يرمون صاحبه بالكفر أو الزندقة كما بينا ذلك في غير ما موضع من المنار ، وهذا من الخزي الذي يعد من أغرب جهل البشر ، والخذلان الذي يمثل منتهى فساد العقول والفطر ، يتبرأ منه ومن اهله أئمة الاثر والفقه والتصوف والعلماء بدلائل مذاهبهم وطرقهم . وهو ليس من التقليد الذي أجازه بعض هؤلاء العلماء في شيء فقد كانوا في خير القرون لا يعلمون عامة الامة الا ما نزله الله تعالى اليها وما بينه به رسولها ، ولم يكن ثم مذاهب تحمل عليها، وانما كانت مباحث الاجتهاد محصورة في تعليم الخاصة ومجالس القضاء ونوازل الفتوى في الوقائع . ومن قواعد الاصول عندهم عدم جواز الاجتهاد مع وجود نص الكتاب أو السنة في المسألة وانه لا حجة في كلام أحد غير المعصوم وهم مجمعون على ان الأئمة الاربعة في الفقه وأئمة الصوفية كالجنيد والشبلي والبسطامي وأمثالهم غير معصومين وانما قال بعض الشيعة بعصمة نفر معروفين من أئمة آل البيت

وجميع هؤلاء العلماء يفضلون سلف الامة على خلفها في العلم بحقيقة الدين والعمل به كما تقدم ويحثون على الاقتداء بهم ويردون كل ما خالف هديهم وسيرتهم

ويستدلون به على الابتداع في الدين كما يستدلون بالنصوص - فنحن اذاً محتاجون في التمييز بين السنة والبدعة الى معرفة ما كان عليه جمهور السلف الصالح ونستمسك به نرد ما خالفه ولا سيما ما اتفقوا عليه وما كان الخلاف فيه شاذا أو ضعيف الرواية أو الدلالة، ولكننا نعذر من أخذ بقول أي عالم من أولئك الائمة لاعتقاده صحة دليله أو أنه هو حكم الله تعالى وان لم يعرف دليله

ثبت بالعقل والنقل والاختبار ان العمل بأحكام الدين ومنه القضاء بها والفتوى في تطبيقها على النوازل الواقعة أقوى بيانا للمراد بها من القول مهما يكن فصيحاً جليا، فكلام الله أفصح الكلام وابلغه ومعنى هذا انه أعلاه بيانا واقناعا وتأثيرا ومع هذا كان بعض الصحابة يخطيء في فهم بعض احكامه وفي تطبيقها على العمل كما أخطأ من تمعك منهم في التراب كما تتمعك الدابة لانه فهم أن التيمم عن الجنابه يجب أن يمتاز عن تيمم الحدث وكما أخطأ من ربط في رحله عقالا أبيض وعقالا أسود ليتبين بالتمييز بينهما طلوع الفجر، ولهذا جعل الله تعالى رسوله (ص) مبينا لكتابه على وصفه اياه بأنه بيان للناس وتبيان لكل شيء ونور مبين، وتبيين الرسول (ص) بافعاله وأحكامه وفتاويه في النوازل أقوى وأظهر من تبيينه بأقواله وان أوتي بعد النبوة جوامع الكلم وصار أفصح من نطق بالضاد. لان أقواله ذات وجوه تحتمل التأويل كما قال الامام علي المرتضى في الكتاب العزيز بل هي أولى، وتختلف فيها الافهام كما اختلف الصحابة رضي الله عنهم في أمره اياهم بان لا يصلوا العصر الا في بني قريظة ففهم بعضهم ان المراد عدم التأخر عن الوصول الى بني قريظة في ذلك الوقت فصلوا في الطريق ولم يتأخروا، وحمل الآخرون الامر على ظاهره، ولان العمل أبعث على القدوة والامتثال وذلك ثابت بالعقل والتجربة، وأظهر وقائعه في السنة أمر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بالتحلل من عمرتهم عقب صلح الحديبية كرر الامر بالقول ثلاثا ولم يمتثلوا فاغتم عليه الصلاة والسلام وكانت زوجه أم سلمة رضي الله عنها معه فذكر لها ذلك مستشيرا لها فيه فأشارت عليه بأن يخرج اليهم ولا يكلم أحدا حتى يتحلل من عمرته بنحر هديه وحلق رأسه ففعل فاتبعه الناس مسرعين ولم يقع لهذا نظير منهم

فعلم من هذا أن أحكام الدين لم تبين تمام التبيين الا بالسنة العملية وان الصحابة

انفسهم كانوا محتاجين اليها وكان يختلف اجتهادهم في الاقوال اذا لم تبين بها ، بل كان منهم من تأول النص الصريح في مقام الخصومة انتصارا لنفسه ودفاعا عنها كما تأول معاوية وعمرو بن العاص حديث عمار تقتله الفئة الباغية فقال : انما قتله من أخرجه، فرد أمير المؤمنين علي هذا القول حين بلغه بان يقتضي ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي قتل عمه حمزه أي وجميع من قتل معه في بدر واحد وسائر الغزوات — فما تبين من أعمال الدين بالسنن المتبعة فعلا وتركا فهو الذي لا يسع احدا مخالفته ولا يعذر فيه وماسواه يعذر فيه الناس باختلاف الافهام والتأول مع الاعتقاد وحسن النية

وقد حدث بعد النبي من الاحداث والوقائع مالم يكن في عصره واختلف الاجتهاد في أحكامها من حيث تحقق المناط وتنقيح المناط أي من حيث الاستدلال على الحكم ومن حيث تطبيقه على الوقائع بالعمل والقاعدة الاصولية في اجتهاد الافراد من الصحابة وغيرهم انه ليس حجة في الدين وانما يجب على من اجتهد في مسألة أن يعمل بما ظهر له أنه الحق فيها والقائلون بالتقليد يجيزون للعاجز عن الاجتهاد فيما يعرض له مما لا نص فيه أن يأخذ باجتهاد من يثق به من المجتهدين. وأما اجماع الصحابة فهو حجة عند جميع الائمة والامام أحمد لا يحتج باجماع غيرهم وكان الامام مالك يحتج باجماع أهل المدينة في زمنه أي زمن التابعين وتابعي التابعين وانما يظهر هذا في الشعائر والسنن العملية المتبعة لا فيما سبيله الاجتهاد. وجملة القول ان الله تعالى اكمل الدين بكتابه وبيان رسوله وكان أهل الصدر الاول من السلف الصالح هم الذين حملوا الينا هذا الدين كما سمعوه ووعوه بالقول والعمل ، فمعرفته متوقفة على معرفة روايتهم له وسيرتهم في العمل به

ولا شك أن العمل بالاسلام عبادة ومعاملة وسياسة وقضاء كان في عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم على أكمل الوجوه وذكر الحافظ ابن رجب في كتاب (جامع العلوم والحكم) عن الامام مالك انه قال: قال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الامر من بعده سننا الاخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله ليس لاحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر خالفها فمن اهتدى بها فهو المهتدي ومن استبصر بها فهو المنصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ماتولى واصلاه جهنم وساءت مصيرا (قال) وحكى عبدالله بن عبدالحكم عن

مالك انه قال : أعجبني عزم عمر ذلك - يعني هذا الكلام . وروى عبدالرحمن بن مهدي هذا الكلام عن مالك ولم يحكه عن عمر اه ويجمع بين الروايتين بأن مالكا كان يرويه تارة و يقوله تارة مقررا له في نفسه على غير طريق الرواية - فعمل جمهور الصحابة والتابعين وسياسة الخلفاء الاربعة الراشدين وقضاؤهم وادارتهم لامور الامة في الحرب والسلم ومعاملة المبتدعة وأرباب الاهواء والثوار الخارجين على ائمة الحق والعدل كل ذلك نبراس نهتدي به ونعرف حكم الله تعالى فيه ، وحاجتنا اليه في كل زمان ومكان كحاجة الصحابة رضوان الله عليهم في زمن الرسول الى مشاهدة أفعاله وسماع احكامه والوقوف على قضائه وسيرته في الحرب والسلم

وسنبين ان شاء الله تعالى مزية كل خليفة من الاربعة وحكمة الله تعالى في ترتيبهم على حسب أعمارهم وما ترتب على ذلك من المصالح

﴿ نتيجة هذه المقدمات — والمقصود من هذه التمهيدات ﴾

(١) علم مما تقدم ان ما عليه جماهير المسلمين اليوم في أمورهم الدينية ممزوج بالبدع والضلالات والفسق وترك الفرائض وفشو الفواحش وكثرة الشبهات الا في بلاد قليلة فمعاشرة المسلمين لايمكن أن يعرف منها حقيقة دينهم في مثل القطر المصري أو الحجازي دع مادونهما في العلم والعراقة فى الاسلام وان نجوم هذه البدع بدأ في خلافة عثمان فما كان عليه المسلمون قبلها فهو الاسلام الخالص، وما كان في خلافة علي من معاملة الخارجين عن الاسلام. باسم الاسلام، والخارجين من المسلمين على أئمة الحق بالشهوات أو الشبهات، والمبتدعين فيه ما ليس منه بالتأويلات، فهو الحق الذي يهتدى في أمثال هذه المشكلات، والنور الذي يستضاء به في دياجير الظلمات ، وعليه جرى علماء السلف الصالح من حملة السنة وأئمة العترة ورواة الآثار، وأهل الاجتهاد الصحيح من علماء الامصار

(٢) ان دين الله الاسلام هو كتابه تعالى وما بينه من سنة رسوله بالقول والعمل الذي كان عليه جمهور الصحابة والتابعين وأئمة عترة النبي (ص) قبل حدوث الفتن واحداث البدع وفي أثنائها ، وحملته الى الامة هم الذين حفظوا الكتاب والسنة وصنفوا الكتب في الاخبار والآثار وسيرة أهل الصدر الاول وميزوا صادقها من كاذبها وصحيحها من سقيمها وأئمة الامصار فى القرون

الثلاثة الذين بينوا للناس طرق فهم النصوص والاستنباط منها. فما أجمعوا عليه من أمر الدين فهو الذي لا يسع مسلما تركه ، وما اختلفوا فيه يرد الى الكتاب والسنة كما أمر الله تعالى بقوله (فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) أي مآلا وعاقبة. والرد فى الامور العامة منوط بأولي الامر، وفى الوقائع الخاصة بعمل كل فرد بما ظهر له الدليل على صحته، فان لم يكن من أهل الدليل عمل بما يفتيه به من يثق بعلمه بالكتاب والسنة ودينه في الاهتداء بهما

(٣) عمل جمهور السلف الصالح حجة فيما يختلف أهل النظر والاستدلال فيه باجتهادهم أو اختلاف أفهامهم وتأويلهم للنصوص ولكننا نعذر المخالف لجمهور السلف بالاجتهاد والتأول اذا علمنا من حاله انه مؤمن بأن كل ماجاء به الرسول من أمر الدين حق، ومسلم مذعن لذلك على الوجه المبين في المقدمات ، وحينئذ نعامله معاملة المسلمين في الصلاة معه وفي أحكام النكاح والارث وغير ذلك مع الرد عليه ومجادلته بالتي هي أحسن والتحذير من بدعته اذا كانت مخالفته ابتداعا أو فسقه اذا كانت فسقا ، مهتدين في ذلك بما كان أهل الصدر الاول يعاملون به المنافقين والمؤلفة قلوبهم من ضعفاء المسلمين الذين قبلوا أحكام الاسلام والخوارج والمبتدعة المتأولين ، مثال ذلك اننا لا نعتد باسلام أحد يكذب القرآن أو يستحل مخالفته وانما نعذر من يفهم بعض آياته فهما مخالفا لفهم السلف مع التسليم والاذعان النفسي لكل مافيه ولو بحسب فهمه، ولا نعتد باسلام من يكذب الرسول أو يستحل مخالفته فيما يعتقد هو انه جاء به من دين الله ولكننا نعذر من لم يصدق رواية بعض الاحاديث لشبهة عنده في المتن أو السند فكذب مضمونها أو خالفه لذلك وان صح عندنا ، ونرد عليه بالتي هي أحسن . فقد أمرنا بدرء الحدود بالشبهات ، وأولى الحدود أن يدرأ حد الردة والخروج من الملة

(٤) انما جعل العلماء المتقدمون مدار الارتداد عن الاسلام على جحد المجمع عليه المعلوم بالضرورة من أمر الدين لان الجهل عذر عندهم والمدار في صحة الاسلام الاذعان النفسي والعملي لاحكامه وهو فرع العلم بها ولذلك صرحوا بان من نشأ في شاهق جبل أو كان حديث عهد بالاسلام يعذر حتى بجحده المعلوم من الدين بالضرورة عند جمهور المسلمين لانه ليس معلوماً عنده ولم يصدقوا

الناشىء بين المسلمين أو من طال عهد اختلاطه بهم بعد الاسلام اذا جحد شيئاً وادعى الجهل ليتنصل من الحد مثلا. وقد بينا في المقدمات ان معاشرة المسلمين في اكثر البلاد الاسلامية في هذه الازمنة لاتقتضي معرفة حقيقة الاسلام في عقائده وعباداته الخالية من البدع وسائر أحكام الحلال والحرام، وانما يعلم اسلام المرء باذعانه وخضوعه لما علم انه من الاسلام، ومن كان هكذا فعلاج مايجهله تعليمه واقامة الحجة عليه. وقد جربنا هذا العلاج فشفي به كثيرون من أدواء الشرك والابتداع والشكوك والاوهام ، فالسليم الفطرة ذو الجهل البسيط يشفى بسرعة عجيبة وانما يعسر شفاء أصحاب الجهل المركب الذين أخذوا شيئاً من قشور الكلام والفقه وتأويلات أدعياء الفقه والتصوف فهم يردون بها الآيات الصريحة والاحاديث الصحيحة وسيرة السلف الصالح (ولاحول ولاقوة بالله العلي العظيم) وهذا هو البلاء المبين الذي أضاع الاسلام ولا علاج له الا الا بناء التعليم الاسلامي في مدارسه وغيرها على التفسير والحديث وسيرة السلف الصالح وتلقين كل مسلم ماتقدم تقريره في ذلك

(٥) اننا على كوننا لا نكفر أحداً من أهل القبلة فيما يأتيه جاهلا أو متأولا نحتاط لديننا فيمن نعلم بالاختبار الشخصي انهم على شيء من الشرك الجلي أو النفاق من غير أن نفرق الجماعة أو نحدث الفتن بين المسلمين فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الصحابة كحذيفة بن اليمان يعرفون بعض المنافقين باعيانهم ولا يجبهونهم بذلك ولا يخبرون الناس به رجاء أن يصلحوا ويوقنوا بطول معاشرة المسلمين، وكان علماء الصحابة والتابعين يصلون مقتدين بأئمة الجور من بني أمية وعمالهم ، والاسوة الكبرى في هذا الباب سيرة علي كرم الله وجهه في الخوارج ومعاوية وأنصاره. واني على هذا لا أصلي مقتديا بمن أعلم باختباري الشخصي أنه مشرك أو كافر بغير الشرك وان كان يظهر الاسلام ولا أعطيه شيئاً من الزكاة الواجبة الا اذا كان من المؤلفة قلوبهم . فهذا ما عندي من الجواب عن سؤال الموحدين في دمياط كثرهم الله تعالى وبارك فيهم

واني أتبع هذا ببيان سيرة السلف الصالح فيما ذكر من أمر الابتداع والاختلاف في الدين وأهله من أصحاب الاهواء وغيرهم ثم اقفي عليها بما أراه نافعا في الاقتداء بهم . عسى أن يهتدي به الغلاة في الدين والمفرطون فيه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

شرح قاعدة « لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب »

و بيان عدم كفر المبتدع في الدين جاهلا أو متأولا

هذه القاعدة من قواعد أهل السنة والجماعة الذين يصدق عليهم هذا القول لا من يسمون أنفسهم بهذا الاسم ليتميزوا من المعروفين بأسماء أخرى . وهي تذكر في بعض العقائد . وقد رأيت لشيخ الاسلام ابن تيمية تحقيقا نفيسا مطولا فيها ذكره في سياق تخطئة الرافضة في سب الصحابة (رض) و بيان ان الرد عليهم وعلى كل مخطئ في الدين يجب ان يقصد به بيان الحق وهداية الخلق دون التشفي والانتقام. وذكر ان الكلام في هذا مبني على مسألتين و بين ذلك بما نصه :

(أحدهما) ان الذنب لا يوجب كفر صاحبه كما تقوله الخوارج ، بل ولا تخليده في النار ومنع الشفاعة فيه كما تقوله المعتزلة

(الثانية) ان المتأول الذي قصد متابعة الرسول لا يكفر ولا يفسق اذا اجتهد فأخطأ وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية . وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفروا المخطئين فيها. وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين وانما هو في الاصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة و يكفرون من خالفهم (فيها) كالخوارج والمعتزلة والجهمية ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة كبعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم . وقد يسلكون في التكفير ذلك فمنهم من يكفر أهل البدع مطلقا ثم يجعل كل من خرج عما هو عليه من أهل البدع . وهذا بعينه قول الخوارج والمعتزلة والجهمية. وهذا القول أيضا لا يوجد في طائفة من أصحاب الائمة الاربعة ولا غيرهم وليس فيهم من كفر كل مبتدع ، بل المنقولات الصريحة عنهم تناقض ذلك

ولكن قد ينقل عن أحدهم انه كفر من قال بعض الاقوال و يكون مقصوده ان هذا القول كفر ليحذر ولا يلزم اذا كان القول كفرا ان يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل [1] فان ثبوت الكفر في حق الشخص المعين كثبوت الوعيد في الآخرة في

(١) لعل الاصل ولو مع الجهل والتاويل

حقه وذلك له شروط وموانع كما بسطناه في موضعه. واذا لم يكونوا في نفس الامر كفارا لم يكونوا منافقين، فيكونون من المؤمنين فيستغفر لهم و يترحم عليهم. واذا قال المسلم (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) يقصد كل من سبقه من قرون الامة بالايمان وان كان قد أخطأ في تأويل تأوله فخالف السنة أو أذنب ذنبا فانه من اخوانه الذين سبقوه بالايمان فيدخل في العموم وان كان من الثنتين والسبعين فرقة فانه مامن فرقة الا وفيها خلق كثير ليسوا كفارا بل مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد كما يستحقه عصاة المؤمنين والنبي صلى الله عليه وسلم لم يخرجهم من الاسلام بل جعلهم من أمته ولم يقل انهم يخلدون في النار

فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته فان كثيرا من المنتسبين الى السنة فيهم بدعة من جنس بدع الرافضة والخوارج. وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب وغيره لم يكفروا الخوارج الذين قاتلوهم، بل أول ما خرجوا عليه وتحيزوا بحروراء وخرجوا عن الطاعة والجماعة قال لهم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ان لكم علينا ان لا نمنعكم من مساجدنا ولا حقكم من الفيء، ثم أرسل اليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم ثم قاتل الباقي وغلبهم ومع هذا لم يسبِ لهم ذرية ولا غنم لهم مالا ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين كمسيلمة الكذاب وأمثاله بل كانت سيرة علي والصحابة في الخوارج مخالفة لسيرة الصحابة في أهل الردة، ولم ينكر أحد على علي ذلك، فعلم اتفاق الصحابة على انهم لم يكونوا مرتدين عن دين الاسلام

قال الامام محمد بن نصر المروزي وقد ولي علي رضي الله عنه قتال أهل البغي وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ما روى وسماهم مؤمنين وحكم فيهم بأحكام المؤمنين، وكذلك عمار بن ياسر، وقال محمد بن نصر أيضا حدثنا اسحاق بن راهويه حدثنا يحيى بن آدم عن مفضل بن مهلهل عن الشيباني عن قيس بن مسلم عن طارق ابن شهاب قال كنت عند علي حين فرغ من قتال أهل النهروان فقيل له أمشركون هم؟ قال من الشرك فروا، فقيل أفمنافقون؟ قال المنافقون لا يذكرون الله الا قليلا. قيل فما هم؟ قال قوم بغوا علينا فقاتلناهم. وقال محمد بن نصر أيضا حدثنا اسحق حدثنا

وكيع عن مسعر عن عامر بن شقيق عن أبي وائل قال قال رجل: من دعي الى البغلة الشهباء يوم قتل المشركون؟ فقال علي من الشرك فروا، قال المنافقون، قال ان المنافقين لايذكرون الله الا قليلا، قال فما هم ؟ قال قوم بغوا علينا فقاتلناهم فنصرنا عليهم .
قال اسحق حدثنا وكيع عن أبي خالد عن حكيم بن جابر قال قالوا لعلي حين قتل أهل النهروان أمشركون هم ؟ قال من الشرك فروا ، قيل فمنافقون ؟ قال المنافقون لايذكرون الله الا قليلا، قيل فما هم ؟ قال قوم حاربونا فحاربناهم وقاتلونا فقاتلناهم.

(قلت) الحديث الاول وهذا الحديث صريحان في ان عليا قال هذا القول في الخوارج الحرورية أهل النهروان الذين استفاضت الاحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذمهم والامر بقتالهم، وهم يكفرون عثمان وعليا ومن تولاهما فمن لم يكن معهم كان عندهم كافرا ودارهم دار كفر، فانما دار الاسلام عندهم هي دارهم . قال الاشعري وغيره : اجمعت الخوارج على تكفير علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومع هذا علي قاتلهم لما بدأوه بالقتال فقتلوا عبد الله بن خباب وطلب علي منهم قاتله، فقالوا كلنا قتله وأغاروا على ماشية فقتلوا الناس ولهذا قال فيهم قوم قاتلونا فقاتلناهم وحاربونا فحاربناهم ، وقال قوم بغوا علينا فقاتلناهم

وقد اتفق الصحابة والعلماء بعدهم على قتال هؤلاء فانهم بغاة على جميع المسلمين سوى من وافقهم على مذهبهم. وهم يبدءون المسلمين بالقتال ولا يندفع شرهم الا بالقتال فكانوا أضر على المسلمين من قطاع الطريق. فان أولئك انما مقصودهم المال فلو اعطوه لم يقاتلوا وانما يتعرضون لبعض الناس وهؤلاء يقاتلون الناس على الدين حتى يرجعوا عما ثبت بالكتاب والسنة واجماع الصحابة الى ما ابتدعه هؤلاء بتأويلهم الباطل وفهمهم الفاسد للقرآن . ومع هذا فقد صرح علي رضي عنه بانهم مؤمنون ليسوا كفارا ولا منافقين . وهذا بخلاف ما كان يقوله بعض الناس كابي أسحق الاسفرائيني ومن تبعه يقولون لا نكفر الا من يكفرنا، فان الكفر ليس حقا لهم بل هو حق لله وليس للانسان أن يكذب على من يكذب عليه ولا (ان) يفعل الفاحشة بأهل من فعل الفاحشة بأهله بل ولو استكرهه رجل على اللواطة لم يكن له أن يستكرهه على ذلك، ولو قتله بتجريع خمر أو تلوط لم يجز قتله بمثل ذلك، لان هذا حرام لحق

الله تعالى. ولو سب النصارى نبينا لم يكن لنا أن نسب المسيح، والرافضة اذا كفروا أبا بكر وعمر فليس لنا أن نكفر عليا . وحديث أبي وائل يوافق ذينك الحديثين فالظاهر انه كان يوم النهروان أيضا

وقد روي عنه في أهل الجمل وصفين قول أحسن من هذا، قال اسحاق بن راهويه حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن جعفر بن محمد عن ابيه قال سمع علي يوم الجمل ويوم صفين رجلا يغلو في القول فقال لا تقولوا الا خيراً انما هم قوم زعموا انا بغينا عليهم وزعمنا انهم بغوا علينا فقاتلناهم، فذكر لابي جعفر انه أخذ منهم السلاح فقال ماكان أغناه عن ذلك . وقال محمد بن نصر حدثنا محمد بن يحيي حدثنا أحمد بن خالد حدثنا محمد بن راشد عن مكحول أن أصحاب علي سألوه عمن قتل من أصحاب معاوية: ما هم ؟ قال هم المؤمنون، وبه قال احمد بن خالد. حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة عن عبد الواحد بن ابي عون قال مر علي -وهو متكيء على الاشتر- على قتلى صفين فاذا حابس اليماني مقتول فقال الاشتر: انا لله وانا اليه راجعون هذا حابس اليماني معهم يا أمير المؤمنين عليه علامة معاوية أما والله لقد عهدته مؤمنا ، قال علي والآن هو مؤمن ، قال وكان حابس رجلا من أهل اليمن من أهل العبادة والاجتهاد. قال محمد بن يحيي حدثنا محمد بن عبيد حدثنا مختار بن نافع عن أبي مطر (قال) قال علي: متى ينبعث أشقاها؟ قيل من أشقاها ؟ قال الذي يقتلني فضربه ابن ملجم بالسيف فوقع برأس علي رضي الله عنه وهمّ المسلمون بقتله فقال لا تقتلوا الرجل فان برئت فالجروح قصاص وان مت فاقتلوه، فقال انك ميت، قال وما يدريك؟ قال كان سيفي مسموما — وبه قال محمد بن عبيد: حدثنا الحسن وهو ابن الحكم النخعي عن رياح بن الحارث قال: انا لبوادٍ وان ركبتي لتكاد تمس ركبة عمار بن ياسر اذ أقبل رجل فقال كفر والله أهل الشام، فقال عمار لا تقل ذلك فقبلتنا واحدة ونبينا واحد، ولكنهم قوم مفتونون فحق علينا قتالهم حتى يرجعوا الى الحق -وبه قال ابن يحيى حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن الحسن بن الحكم عن رياح بن الحرث عن عمار بن ياسر قال: ديننا واحد وقبلتنا واحدة ودعوتنا واحدة ولكنهم قوم بغوا علينا فقاتلناهم. قال ابن يحيى حدثنا يعلى حدثنا مسعر عن عبد الله بن رياح عن رياح بن الحرث قال قال عمار

ابن ياسر: لا تقولوا كفر أهل الشام، قولوا فسقوا قولوا ظلموا. قال محمد بن نصر وهـذا يدل على أن الخبر الذي روي عن عمار بن ياسر انه قال لعثمان بن عفان: هو كافر. خبر باطل لا يصح لانه اذا انكر كفر أصحاب معاوية وهم انما كانوا يظهرون انهم يقاتلون في دم عثمان فهو لتفكير عثمان أشد انكارا (قلت) والمروي في حديث عمار انه لما قال ذلك انكر عليه علي رضي الله عنه وقال أتكفر برب آمن به عثمان وحدثه بما يبين بطلان ذلك القول فيكون عمار ان كان قال ذلك متأولا قد رجع عنه حين تبين له انه قول باطل

ومما يدل على ان الصحابة لم يكفروا الخوارج انهم كانوا يصلون خلفهم وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنـه وغيره من الصحابة يصـلون خلف نجدة الحروري وكانوا أيضا يحـدثونهم ويفتونهم ويخـاطبونهم كما يخاطب المسلم المسلم كما كان عبد الله بن عباس يجيب نجدة الحروري لما أرسل اليه يسأله عن مسائل وحديثه في في البخاري، وكما أجاب نافع ابن الازرق عن مسائل مشهورة وكان نافع يناظره في أشياء بالقرآن كما يتناظر المسلمان. وما زالت سيرة المسلمين على هذا ما جعلوهم مرتدين كالذين قاتلهم الصديق رضي الله عنه - هذا مع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم في الاحاديث الصحيحة وما روي من أنهم شر قتلى تحت اديم السماء خير قتيل من قتلوه في الحديث الذي رواه أبو امامة رواه الترمذي وغيره أي أنهم شر على المسلمين من غيرهم فانهم لم يكن أحد شرا على المسلمين منهم لا اليهود ولا النصارى فانهم كانوا مجتهدين في قتل كل مسلم لم يوافقهم مستحلين لدماء المسلمين وأموالهم وقتل أولادهم مكفرين لهم وكانوا متدينين بذلك لعظم جهلهم وبدعتهم المضلة، ومع هذا فالصحابة والتابعون لهم باحسان لم يكفروهم ولا جعلوهم مرتدين ولا اعتدوا عليهم بقول ولا فعل بل اتقوا الله فيهم وساروا فيهم السيرة العادلة. وهكذا سائر فرق أهل البدع والاهواء من الشيعة والمعتزلة وغيرهم فمن كفر الثنتين والسبعين فرقة كلهم فقد خالف الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين لهم باحسان مع أن حديث الثنتين والسبعين فرقه ليس في الصحيحين وقد ضعفه ابن حزم وغيره لكن حسنه غيره أو صححه كما صححه الحاكم وغيره وقد رواه أهل السنن. وروى من طرق وليس قوله





«ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة» بأعظم من قوله تعالى (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) وقوله (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا) وأمثال ذلك من النصوص الصريحة بدخول من فعل ذلك النار ومع هذا فلا نشهد لمعين بالنار لامكان انه تاب أو كانت له حسنات محت سيآته أو كفر الله عنه بمصائب أو غير ذلك كما تقدم بل المؤمن بالله ورسوله باطنا وظاهرا الذى قصد اتباع الحق وماجاء به الرسول اذا اخطأ ولم يعرف الحق كان اولى ان يعذره الله في الآخرة من المتعمد العالم بالذنب ، فان هذا عاص مستحق للعذاب بلا ريب ، وأما ذلك فليس متعمداً للذنب، بل هو مخطىء والله قد تجاوز لهذه الامة عن الخطأ والنسيان، والعقوبة في الدنيا تكون لدفع ضرره عن المسلمين وان كان في الآخرة خيرا ممن لم يعاقب، كما يعاقب المسلم المتعدي للحدود ولا يعاقب أهل الذمة من اليهود والنصارى والمسلم في الآخرة خير منهم

وأيضا فصاحب البدعة يبقى صاحب هوى يعمل لهواه لا ديانة، ويصد عن الحق الذي يخالف هواه، فهذا يعاقبه الله على هواه، ومثل هذا يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة ، ومن فسق من السلف الخوارج ونحوهم كما روي عن سعد بن أبي وقاص انه قال (نزل) فيهم قوله تعالى (وما يضل به الا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون) فقد يكون هذا قصده، لاسيما اذا تفرق الناس فكان منهم من يطلب الرياسة له ولاصحابه. واذا كان المسلم الذي يقاتل الكفار قد يقاتلهم شجاعة وحمية ورياء وذلك ليس في سبيل الله فكيف بأهل البدع الذين يخاصمون ويقاتلون عليها؟ فانهم يفعلون ذلك شجاعة وحمية، وربما يعاقبون لما اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله لا لمجرد الخطأ الذي اجتهدوا فيه، ولهذا قال الشافعي: لأن أتكلم في علم يقال لي فيه أخطأت، أحب لي من أن أتكلم في علم يقال لي فيه كفرت

فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضا. ومن ممادح أهل العلم انهم يخطئون ولا يكفرون. وسبب ذلك ان أحدهم قد يظن ما ليس بكفر كفرا، وقد يكون كفرا لانه تبين له انه تكذيب للرسول وسب للخالق والآخر لم يتبين له ذلك، فلا يلزم

اذا كان هذا العالم بحاله يكفر[1] اذا قاله أن يكفر من لم يعلم بحاله

والناس لهم فيما يجعلونه كفرا طرق متعددة فمنهم من يقول الكفر تكذيب ماعلم بالاضطرار من دين الرسول ، ثم الناس متفاوتون في العلم الضروري بذلك. ومنهم من يقول الكفر هو الجهل بالله. ثم قد يجعل الجهل بالصفة كالجهل بالموصوف وقد لا يجعله، وهم مختلفون في الصفات نفيا واثباتا . ومنهم من لا يحده بحد بل كل ماتبين انه تكذيب لما جاء به الرسول من أمر الايمان بالله واليوم الآخر جعله كفرا — الى طرق أخر . ولا ريب أن الكفر متعلق بالرسالة فتكذيب الرسول كفر . وبغضه وسبه وعداوته مع العلم بصدقه في الباطن كفر عند الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة العلم وسائر الطوائف الا الجهم ومن وافقه كالصالحي والاشعري وغيرهم فانهم قالوا هذا كفر في الظاهر وأما في الباطن فلا يكون كفراً الا اذا استلزم الجهل بحيث لا يبقى في القلب شيء من التصديق بالرب، وهذا بناء على ان الايمان في القلب لا يتفاضل ولا يكون في القلب بعض من الايمان . وهو خلاف النصوص الصريحة وخلاف الواقع ، ولبسط هذا موضع آخر .

والمقصود هنا ان كل من تاب من أهل البدع تاب الله عليه واذا كان الذنب متعلقا بالله ورسوله فهو حق محض لله فيجب على الانسان ان يكون في هذا قاصدا لوجه الله متبعا لرسوله ليكون عمله خالصا صوابا، قال تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم. قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين* بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا) قال المفسرون وأهل اللغة معنى الآية أخلص دينه وعمله لله وهو محسن في عمله. وقال الفراء في قوله (فقل أسلمت وجهي لله) أخلصت عملي وقال الزجاج قصدت بعبادتي الى الله وهو كما قالوا كما قد ذكر توجيهه في موضع آخر، وهذا المعنى يدور عليه القرآن فان الله تعالى أمر أن لا يعبد الا اياه وعبادته فعل ما أمر وترك ماحظر، والاول هو اخلاص الدين والعمل لله، والثاني هو الاحسان والعمل

(١) لعل الاصل : يكفره

الصالح، ولهذا كان عمر يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحا، واجعله لوجهك خالصا، ولا تجعل لاحد فيه شيئا. وهذا هو الخالص الصواب كما قال الفضيل بن عياض في قوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال أخلصه وأصوبه، قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة.

والامر بالسنة والنهي عن البدعة هما أمر بمعروف ونهي عن منكر وهو من أفضل الاعمال الصالحة فيجب ان يبتغى به وجه الله وان يكون مطابقا للامر، وفي الحديث «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فينبغي ان يكون عالما بما يأمر به عالما بما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه»[1] فالعلم قبل الامر والرفق مع الامر والحلم مع الامر فان لم يكن عالما لم يكن له ان يقفوَ ماليس له به علم، وان كان عالما ولم يكن رفيقا كان كالطبيب الذي لا رفق فيه فيغلظ على المريض فلا يقبل منه، وكالمؤدب الغليظ الذي لا يقبل منه الولد وقد قال الله تعالى لموسى وهارون (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ثم اذا أمر أونهى فلا بد أن يؤذى في العادة فعليه أن يصبر ويحلم كما قال تعالى (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور) وقد أمر الله نبيه بالصبر

(١) المنار: قوله وفي الحديث الخ لم أر الحديث بهذا اللفظ في شيء من دواوين السنة ولا فيما جمع منها ككنز العمال والمصنف بحر واسع. وفي معناه حديث «من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف» رواه البيهقي في شعب الايمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وفي سنده سالم بن ميمون الخواص ضعيف لا يحتج به ولا يكتب حديثه ورواه عن المثني بن الصباح الفارسي وهو ضعيف مختلف فيه قال الامام أحمد لا يسوى حديثه شيئا. وقال ابن معين رجل صالح يكتب حديثه ولا يترك. لكن رواه الديلمي من حديث أبان عن أنس مرفوعا بلفظ «لا ينبغي للرجل ان يامر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى تكون فيه خصال ثلاث رفيق بما يامر رفيق بما ينهى عالم بما يامر عالم بما ينهى عدل فيما يامر عدل فيما ينهى» وذكر في الاحياء للغزالي «لا يامر بالمعروف وينهي عن المنكر الا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهي عنه حليم فيما ينهي عنه فقيه فيما يامر به فقيه فيما ينهى عنه» قال الحافظ العراقي لم أجده هكذا. وذكر حديث البيهقي

على اذى المشركين في غير موضع وهو امام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فان الانسان عليه أولا ان يكون أمره لله وقصده طاعة الله فيما امر به وهو يحب صلاح المأمور واقامة الحجة عليه فان فعل ذلك لطلب الرياسة لنفسه ولطائفتــه وتنقيص غيره كان ذلك خطيئة لا يقبله الله وكذلك اذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء كان عمله حابطاً. ثم اذا رد عليه ذلك أو أوذي أو نسب الى أنه مخطىء وغرضه فاسد طلبت نفسه الانتصار لنفسه وأتاه الشيطان فكان مبدأ عمله لله ثم صار له هوى يطلب به أن ينتصر على من آذاه وربما اعتدى على ذلك المؤذي، وهكذا يصيب أصحاب المقالات المختلفة اذا كان كل منهم يعتقد أن الحق معه وانه على السنة فان أكثرهم قد صار لهم في ذلك هوى أن ينتصر جاههم ورياستهم وما نسب اليهم لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله، بل يغضبون على من خالفهم وان كان مجتهدا معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن كان يوافقهم وان كان جاهلا سيئ القصد ليس له علم ولا حسن قصد، فيفضي هذا الى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله. وهذا حال الكفار الذين لا يطلبون الا أهواءهم ويقولون هذا صديقنا وهــذا عدونا وبلغة المغل هذا « بال » هذا « باغي » لا ينظرون الى موالاة الله ورسوله ومعاداة الله ورسوله

ومن هنــا تنشأ الفتن بين الناس قال الله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فاذا لم يكن الدين كله لله كانت فتنــة ، وأصل الدين أن يكون الحب لله والبغض لله والموالاة لله والمعاداة لله والعبادة لله والاستعانة بالله والخوف من الله والرجاء لله والمنع لله والاعطاء لله ، وهذا انما يكون بمتابعة رسول الله الذي أمره أمر الله ونهيه نهي الله ومعاداته معاداة الله وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله. وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر مالله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله ولا يغضب لغضب الله ورسوله بل يرضى اذا حصل ما يرضاه بهواه ويغضب اذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين ان الذي يرضى له ويغضب له هو السنة وهو الحق وهو الدين، فاذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الاسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا

بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مما هو في سبيل الله فكيف اذا كان الذي يدعي الحق أو السنة هو كنظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة؟ وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وكفر بعضهم بعضاً وفسق بعضهم بعضاً ولهذا قال تعالى فيهم (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وقال تعالى (كان الناس أمة واحدة) فاختلفوا (١) كما في سورة يونس (١) وكذلك في قراءة بعض الصحابة وهذا على قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين انهم كانوا على دين الاسلام وفي تفسير ابن عطية عن ابن عباس انهم كانوا على الكفر وهذا ليس بشيء وتفسير ابن عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس بل قد ثبت عنه أنه قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام وقد قال في سورة يونس (وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا) فذمهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أنه كان حقاً

والاختلاف في كتاب الله على وجهين (أحدهما) أن يكون كله مذموماً كقوله (وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) والثاني أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل كقوله (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) لكن اذا أطلق الاختلاف فالجميع مذموم كقوله (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « انما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم » ولهذا فسروا الاختلاف في هذا الموضع بانه كله مذموم ، قال الفراء في اختلافهم وجهان

---

(١) يوشك ان يكون قد سقط من هنا شيء ولو بعض آية البقرة التي أورد جملة منها وهي (كان الناس أمة واحدة) وبعده (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) أي كان بعثهم بعد الاختلاف الذي صرح به في آية يونس وسيذكرها وفي قراءة ابي ابن كعب الذي أشار اليه المصنف بقوله بعض الصحابة ولعله قصد بها التفسير (٢) لعل أصله تفسير الجمهور أي للامة الواحدة

(احدهما) كفر بعضهم بكتاب بعض (والثاني) تبديل مابدلوا، وهو كما قال، فان المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل فيكفر بالحق الذي مع الآخر ويصدق بالباطل الذي معه وهو تبديل ما بدل، فالاختلاف لابد أن يجمع النوعين ولهذا ذكر كل من السلف أنواعاً من هذا (ثم قال المؤلف بعد ذكر ستة أنواع من اختلاف أهل الكتاب حذفناها للاختصار مانصه)

واختلاف أهل البدع هو من هذا النمط(١) فالخارجي يقول ليس الشيعي على شيء والشيعي يقول ليس الخارجي على شيء، والقدري النافي يقول ليس المثبت على شيء والقدري الجبري المثبت يقول ليس القدري النافي على شيء والوعيدية تقول ليست المرجئة على شيء والمرجئة تقول ليست الوعيدية على شيء. بل ويوجد شيء من هذا بين أهل المذاهب الاصولية والفروعية المنتسبين الى السنة فالكلابي يقول ليس الكرامي على شيء، والكرامي يقول ليس الكلابي على شيء، والاشعري يقول ليس السالمي على شيء والسالمي يقول ليس الاشعري على شيء وصنف السالمي كأبي علي الأهوازي كتاباً في مثالب الاشعري وصنف الاشعري كابن عساكر كتاباً يناقض ذلك من كل وجه، وذكر فيه مثالب السالمية، وكذلك أهل المذاهب الاربعة وغيرها لاسيما وكثير منهم تلبس ببعض المقالات الاصولية وخلط هذا بهذا، فالحنبلي والشافعي والمالكي يخلط بمذهب مالك والشافعي وأحمد شيئاً من أصول الأشعرية والسالمية وغير ذلك ويضيفه الى مذهب مالك والشافعي وأحمد، وكذلك الحنفي يخلط بمذهب أبي حنيفة شيئاً من أصول المعتزلة والكرامية والكلابية ويضيفه الى مذهب أبي حنيفة. وهذا من جنس الرفض والتشيع لكنه تشيع في تفضيل بعض الطوائف والعلماء لاتشيع في تفضيل بعض الصحابة

والواجب على كل مسلم يشهد أن لااله الا الله وان محمداً رسول الله ان يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لاشريك له وطاعة رسوله يدور على ذلك ويتبعه أين وجده ويعلم أن أفضل الخلق بعد الانبياء هم الصحابة فلا ينتصر لشخص انتصاراً مطلقاً عاما الا الرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً عاماً الا للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فان الهدى

(١) يريد النمط الاخير الذي حكاه الله تعالى في قوله عنهم (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء)

يدور مع الرسول حيث دار ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فاذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط بخلاف أصحاب عالم من العلماء فانهم قد يجتمعون على خطأ بل كل قول قالوه ولم يقله غيرهم من الأئمة لا يكون الا خطأ فان الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مسلماً الى عالم واحد وأصحابه ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شبيه بقول الرافضة في الامام المعصوم، ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول قبل وجود المتبوعين الذين تنسب اليهم المذاهب في الاصول والفروع ويمتنع أن يكون هؤلاء جاؤا بحق يخالف ماجاء به الرسول فان كل ماخالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول مايخالف الصحابة والتابعين لهم باحسان فان أولئك لم يجتمعوا على ضلالة فلا بد أن يكون قوله ان كان حقاً مأخوذاً عما جاء به الرسول موجوداً فيمن قبله وكل قول قيل في دين الاسلام مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه فانه قول باطل

والمقصود هنـا أن الله تعالى ذكر أن المختلفين جاءتهم البينة وجاءهم العلم وانما اختلفوا بغياً ولهذا ذمهم الله وعاقبهم فانهم لم يكونوا مجتهدين مخطئين، بل كانوا قاصدين البغي عالمين بالحق معرضين عن القول وعن العمل به. ونظير هذا قوله (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم) قال الزجاج اختلفوا للبغي لا لقصد البرهان . وقال تعالى (ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) وقال تعالى (ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون * ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون * انهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين * هذا بصائر للناس وهدى ورحمة) فهذه المواضع من القرآن تبين أن المختلفين مااختلفوا حتى جاءهم العلم والبينات فاختلفوا للبغي والظلم، لا لاجل اشتباه الحق بالباطل عليهم . وهذه حال أهل الاختلاف المذموم من أهل الاهواء كلهم لايختلفون

الا من بعد أن يظهر لهم الحق ويجيئهم العلم فيبغي بعضهم على بعض.

ثم المختلفون المذمومون كل منهم يبغي على الآخر فيكفر بما معه من الحق مع علمه انه حق ، ويصدق بما مع نفسه من الباطل مع علمه بأنه باطل ، وهؤلاء كلهم مذمومون ولهذا كان اهل الاختلاف المطلق كلهم مذمومين في الكتاب والسنة فانه مامنهم الا من خالف حقا واتبع باطلا ، ولهذا أمر الله الرسل أن تدعو الى دين واحد وهو دين الاسلام ولا يتفرقوا فيه وهو دين الاولين والآخرين من الرسل واتباعهم قال تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه) وقال في الآية الاخرى (يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم * وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) أي كتبا اتبع كل قوم كتابا مبتدعا غير كتاب الله فصاروا متفرقين مختلفين لان أهل التفرق والاختلاف ليسوا على الحنيفية المحضة التي هي الاسلام المحض الذي هو اخلاص الدين لله الذي ذكره الله في قوله (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ذلك دين القيمة) وقال في الآية الأخرى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون * منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) فنهاه أن يكون من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وأعاد حرف «من» ليبين أن الثاني بدل من الاول والبدل هو المقصود بالكلام وماقبله توطئة له وقال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ـ الى قوله ـ ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) فأخبر أن أهل الرحمة لايختلفون. وقد ذكر في غير موضع أن دين الانبياء كلهم الاسلام كما قال تعالى عن نوح (وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال عن ابراهيم (اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون) وقال يوسف (فاطر السموات والارض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين)

(وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) وقال عن السحرة (ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) وقال عن بلقيس (رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقال (يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار) وقال (واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون) وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «انا معاشر الانبياء ديننا واحد» وتنوع الشرائع لايمنع أن يكون الدين واحداً وهو الاسلام كالدين الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فانه هو دين الاسلام أولا وآخرا، وكانت القبلة في أول الامر بيت المقدس ثم صارت القبلة الكعبة، وفي كلا الحالين الدين واحد وهو دين الاسلام فهكذا سائر ما شرع للانبياء قبلنا ولهذا حيث ذكر الله الحق في القرآن جعله واحداً وجعل الباطل متعدداً كقوله (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقوله (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقوله (اجتباه وهداه الى صراط مستقيم) وقوله (ويهديك صراطاً مستقيما) وقوله (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) وهذا يطابق مافي كتاب الله من أن الاختلاف المطلق كله مذموم بخلاف المقيد الذي قيل فيه (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) فهذا قد بين أنه اختلاف بين أهل الحق والباطل كما قال (هذان خصمان اختصموا في ربهم) وقد ثبت في الصحيح انها نزلت في المقتتلين يوم بدر في حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي وعبيدة بن الحرث ابني عميه والمشركين الذين بارزوهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة

وقد تدبرت كتب الاختلاف التي يذكر فيها مقالات الناس اما نقلا مجرداً مثل كتاب المقالات لابي الحسن الأشعري وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ولابي عيسى الوراق أو مع انتصار لبعض الاقوال كسائر ماصنفه أهل الكلام على اختلاف طبقاتهم فرأيت عامة الاختلاف الذي فيها من الاختلاف المذموم وأما الحق الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه وكان عليه سلف الامة فلا يوجد فيها في جميع مسائل الاختلاف بل يذكر أحدهم في المسئلة عدة أقوال والقول الذي جاء به الكتاب والسنة لايذكرونه، وليس ذلك لانهم يعرفونه ولا

يذكرونه بل لا يعرفونه، ولهذا كان السلف والأئمة يذمون هذا الكلام ولهذا يوجد الحاذق منهم المنصف الذي غرضه الحق في آخر عمره يصرح بالحيرة والشك(١) اذا لم يجد في الاختلافات التي نظر فيها وناظر ماهو حق محض وكثير منهم يترك الجميع ويرجع الى دين العامة الذي عليه العجائز والاعراب كما قال أبو المعالي وقت السياق: لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الاسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه والآن ان لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها اناذا أموت على عقيدة أمي. وكذلك أبو حامد في آخر عمره استقر أمره على الوقف والحيرة بعد أن نظر فيما كان عنده من طرق النظار أهل الكلام والفلسفة وسلك ماتيسر له من طرق العبادة والرياضة والزهد وفي آخر عمره اشتغل بالحديث بالبخاري ومسلم، وكذلك الشهرستاني مع أنه كان من أخبر هؤلاء المتكلمين بالمقالات والاختلاف وصنف فيها كتابه المعروف بنهاية الاقدام في علم الكلام وقال: قد أشار علي من اشارته غنم، وطاعته حتم، ان اذكر له من مشكلات الاصول، ما أشكل على ذوي العقول، ولعله استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضرم،

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر الا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

فاخبر انه لم يجد الا حائراً شاكا مرتاباً أو من اعتقد ثم ندم لما تبين له خطأه فالاول فى الجهل البسيط(ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها) وهذا دخل في الجهل المركب ثم تبين له انه جهل فندم، ولهذا تجده في المسائل يذكر أقوال الفرق وحججها ولا يكاد يرجح شيئاً للحيرة، وكذلك الآمدي الغالب عليه الوقف في الحيرة. وأما الرازي فهو في الكتاب الواحد بل في الموضع منه ينصر قولا وفي موضع آخر منه أو من كتاب آخر ينصر نقيضه، ولهذا استقر أمره على الحيرة والشك، ولهذا لما ذكر ان أكمل العلوم العلم بالله وبصفاته وأفعاله ذكر على أن كلا منها اشكال (٢) وقد ذكرت كلامه وبينت

---

(١) المنار: اي الشك في الترجيح بين المسألة الكلامية والفلسفية لا في أصل الاسلام

(٢) المنار: كتب مصحح الكتاب في المطبعة الاميرية: هكذا في الاصل ولعل في الكلام نقصا أو تحريفا اه ونقول لعل الاصل: ذكر أن كلا منها عليه اشكال — أو — ذكر أن على كل منها اشكالا

ما أشكل عليه وعلى هؤلاء في مواضع فان الله قد أرسل رسله بالحق وخلق عباده على الفطرة فمن كمل فطرته بما أرسل الله به رسله وجد الهدى واليقين الذي لاريب فيه ولم يتناقض ولكن هؤلاء أفسدوا فطرتهم العقلية وشرعتهم السمعية بما حصل لهم من الشبهات والاختلاف الذي لم يهتدوا معه الى الحق كما قد ذكر تفصيل ذلك في موضع غير هذا

والمقصود هنا انه لما ذكر ذلك قال: ومن الذي وصل الى هذا الباب، ومن الذي ذاق من هذا الشراب

نهاية اقدام العقول عقال — وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن - أقرأ في الاثبات (اليه يصعد الكلم الطيب - الرحمن على العرش استوى) وأقرأ في النفي (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير - ولا يحيطون به علما) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي» وهو صادق فيما أخبر به انه لم يستفد من بحوثه في الطرق الكلامية والفلسفية سوى أن جمع قيل وقالوا وانه لم يجد فيها ما يشفي عليلا أو يروي غليلا، فان من تدبر كتبه كلها لم يجد فيها مسألة واحدة من مسائل أصول الدين موافقة للحق الذي يدل عليه المنقول والمعقول بل يذكر في المسألة عدة أقوال والقول الحق لا يعرفه فلا يذكره. وهكذا غيره من أهل الكلام والفلسفة ليس هذا من خصائصه فان الحق واحد ولا يخرج عما جاءت به الرسل وهو الموافق لصحيح العقل وفطرة الله التي فطر عليها عباده، وهؤلاء لا يعرفون ذلك بل هم (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) وهم مختلفون في الكتاب (وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد)

وقال الامام أحمد في خطبة مصنفه الذي صنفه في محبسه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله قال: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى، ويصبرون منهم على الاذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل الضلالة والعمى، فكم من قتيل لابليس قد أحيوه، وكم من تائه ضال قد هدوه،

فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم.» وهو كما وصفهم رحمه الله فان المختلفين أهل المقالات المذكورة في كتب الكلام اما نقلا مجرداً للاقوال واما نقلا وبحثاً وذكراً للجدال مختلفون في الكتاب كل منهم يوافق بعضاً ويرد بعضاً ويجعل مايوافق رأيه هو المحكم الذي يجب اتباعه وما يخالفه هو المتشابه الذي يجب تأويله أو تفويضه وهذا موجود في كل مصنف في الكلام . اه

*

هذا ما أحببنا نقله من كلام شيخ الاسلام في هذا المقام وقد أطال بعده في وصف المتكلمين وخلافهم وفضل الاشعري على غيره في معرفة الفرق ومذاهبها وذكر خلاف الفلاسفة أيضا . ونصر مذهب السلف بالعقل والنقل على مذاهب جميع المتكلمين والفلاسفة. ولا يهولنك تخطئة هذا الرجل لجميع أولئك الاساطين من الفلاسفة والنظار غرورا بشبهة الشيطان : انه لا يعقل ان يكون هو أعلم منهم أو أذكى، حتى يكون أحق بالصواب وأولى، فالرجل ليس صاحب مذهب مخترع تعارضت أدلته مع أدلة هذه الفرق واشتبه علينا الامر حتى نرجح قوله على كل منها أو نرجح غيره عليه، بل هو ناصر مذهب جمهور السلف الصالح بالادلة العقلية التي انخدع بنظرياتها كل من شذ عنه قليلا أو كثيرا، وأساس مذهبهم الايمان بكل ماجاء في كتاب الله وصح عن رسوله على الوجه الذي كان عليه خير الامة قبل افتتانها بالنظريات التي فرقتها شيعا. ونحمد الله أن سخر لها من هدم كل ماخالف السلف من تلك النظريات بأدلة من جنسها هي أقوى منها، وأثبت بالبرهان أن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول، ويتضمن هذا اثبات ان هذا الدين من عند الله اذ لو كان من عند الرسول أو غيره لترقى بابحاث المتكلمين والفلاسفة وكان المتأخر أصح رأيا فيه من المتقدم

وقد استوفى الرد على أولئك المخالفين للسلف من المنتسبين الى مذاهب السنة والمبتدعة والفلاسفه فى كتابه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول)

واني أنقل منه هنا ماختم به الوجه السابع من الوجوه التي تكلم فيها على تقديمهم العقل على النقل عند التعارض وهو :

﴿ تفنيد ابن تيمية لقول المتكلمين بتقديم النظريات العقلية على النصوص السمعية ﴾

والمقصود هنا التنبيه على أنه لو سوغ للناظرين أن يعرضوا عن كتاب الله تعالى ويعارضوه بآرائهم ومعقولاتهم لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى فان الذين سلكوا هذه السبيل كلهم يخبر عن نفسه بما يوجب حيرته وشكه والمسلمون يشهدون عليه بذلك فثبت بشهادته واقراره على نفسه وشهادة المسلمين الذين هم شهداء الله في الارض انه لم يظفر من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه بيقين يطمئن اليه ولا معرفة يسكن بها قلبه والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولا صريحا يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا ان قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول فصار مايدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه مايجزم بأنه معقول صحيح اما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الامة واما بظهور تناقضهم ظهورا لا ارتياب فيه، واما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر مايعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه، والناس اذا تنازعوا في المعقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى بل يرجع في ذلك الى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد يغير فطرتها ولا هوى فامتنع حينئذ أن يعتمد على ما يعارض الكتاب من الاقوال التى يسمونها معقولات وان كان ذلك قد قالته طائفة كبيرة لمخالفة طائفة كبيرة لها ولم يبق الا أن يقال ان كل انسان له عقل فيعتمد على عقل نفسه وما وجده معارضا لاقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من رأيه خالفه وقدم رأيه على نصوص الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم. ومعلوم ان هذا اكثر ضلالا واضطرابا فاذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر الى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا فيها الى معقول صريح يناقض الكتاب، بل اما الى حيرة وارتياب، واما الى اختلاف بين الاحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء ومعرفة ماسلكوه من العقليات؟ فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه الا

بما هو جهل بسيط أوجهل مركب فالاول (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) والثاني (كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وأصحاب القرآن والايمان في نور على نور قال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) وقال تعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره) الى آخر الآية وقال تعالى (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه أولئك هم المفلحون) فأهل الجهل البسيط منهم أهل الشك والحيرة من هؤلاء المعاضين للكتاب المعرضين عنه، وأهل الجهل المركب أرباب الاعتقادات الباطلة التي يزعمون أنها عقليات وآخرون ممن يعارضهم بقول مناقض لتلك الاقوال هو العقليات ومعلوم أنه حينئذ يجب فساد أحد الاعتقادين أو كليهما والغالب فساد كلا الاعتقادين لما فيهما من الاجمال والاشتباه وأن الحق يكون فيه تفصيل يبين أن مع هؤلاء حقا و باطلا ومع هؤلاء حقا و باطلا والحق الذي مع كل منهما هو الذي جاء به الكتاب الذي يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه والله أعلم اه

[المنار] كل مؤمن سليم الفطرة صحيح العقل اذا قرأ هذا يجزم بأنه الحق، وانه يجب على المسلمين أن لا يغتروا بشهرة أحد من المتكلمين ولا الصوفية ولا الفقهاء الذين خالفوا السلف فيما نقله ثقات المحدثين عنهم من أمر الدين، وانما نعذر كل عالم في اجتهاده اذا ثبت من سيرته اذعانه للامر والنهي وان قصده تأييد الشرع، ولكن لا نتبع أحدا فيما خالف هدي السلف الصالح في الدين، معتمدين على نقل ثقات المحدثين دون آراء المختلفين ، وهذا منتهى الاصلاح في الدين .

حقيقة التصوف ومكانه من الشرع

(س٣) من صاحب الامضاء بمدرسة القضاء الشرعي

الى فضيلة مولانا وراشدنا السيد رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله

وقع نظري على بعض الاعمال الدينية في بلدي المسمى بالسنبلاوين مما من أجله أرجو أن تعرفنا حقيقة التصوف وهل له قوانين ونواميس غير مابينته الشريعة المحمدية . واذا كان هو ماجاءت به الحنيفة فما الحاجة اليه والقرآن والسنة بين يديه؟ وان كان مخالفا فمن أقر المبتدىء فيه عليه ومن أين استنبط ذلك المخترع تلك الطرق التي توصل الى الله (كما يعبرون)؟ ولعمري ان صح هذا كان لله طريقان طريق بينه على لسان رسوله الكريم في كتابه المبين، وآخر قد هدي اليه بعض عباده المهتدين

وانما دعاني الى سؤالكم والاستنارة بمناركم ماأخشاه من كسوف شمس شريعتنا في ذلك الافق (أفق الصوفية) فاني أرى من ينسبون اليه ويدعونه قد ولعوا بمقتضياته وشغفوا بها حتى انستهم الاذكار والاوراد التي يتغنون بها في الساحات والانحاء ومبالغاتهم في الشيوخ والاولياء انساهم ذلك أساس الدين وكبد الشريعة (التوحيد) وهذا طبق ماأراه غريزة في بعض النفوس من الشغف بالكماليات وربما سحبت ذيول النسيان على الواجبات غشا منها لاصحابها وانهم قاموا بما فرض عليهم وارتقوا الى أن وجب عليهم ماندب اليه الدين ، وزجا منها بهم الى زمرة المقربين الذين امتثلوا وأمضوا أوامر الدين

وان سبق لكم هذا فارجو من فضيلتكم اعادته باختصار، وذلك كما تعلمون لقرب عهدنا بالمنار لازلتم مصادر الرشد وأهل الفضل والوقار

حسين محمد حسين النجار

بمدرسة القضاء الشرعي

[المنار] التصوف هو مصدر تصوف الرجل - أي صار صوفيا أي أحد افراد

الطائفة المعروفة بالصوفية ، وأشهر الاقوال في المنسوب اليه انه الصوف لانهم كانوا يلتزمون لبسه وقيل انه كلمة سوفا أو سوفي اليونانية ومعناها الحكمة وذهب الحافظ ابن الجوزي في كتابه تلبيس ابليس أنه نسبة الى صوفة وهو لقب الغوث بن مر بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر لانه قد اشتهر عند العرب أنه أول من انقطع الى الله تعالى لعبادته عند بيته الحرام ، وتسلسل ذلك في ولده فصار لقب صوفة يطلق على كل منهم وناطت العرب به وبهم من بعده اجازة الناس بالحج من عرفة ومنى وهي الافاضة منهما فكانت لا تفيض منهما حتى يفيض صوفة فاذا حانت الاجازة تقول « اجيزي صوفة » وكان سبب هذه التسمية ان أم الغوث كان لا يعيش لها ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ، ففعلت فقيل له ثم لولده من بعده صوفة - نقله عن السائب الكلبي

قال الحافظ المذكور : كانت النسبة في زمن رسول الله (ص) الى الاسلام والايمان فيقال مسلم ومؤمن ثم حدث اسم زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاقا تخلقوا بها - ثم ذكر نسبتهم التي لخصناها عنه آنفا . ثم قال في تاريخه ومبدأه : هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مئتين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحمله على الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق الى غير ذلك من الخلال الحسنة . ثم ذكر أن أوائلهم كانوا على ذلك حتى لبس عليهم الشيطان فكان أول تلبيسه ان صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما انطفأ مصباح العلم تخبطوا في الظلمات فمنهم من غلا في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق ، ومنهم من أغري بتعذيب النفس بالجوع والعري والفقر الاختياري ، ومنهم من غلبت عليهم الخيالات ، حتى قالوا بالحلول والاتحاد ، وكانوا يعتنون بالنظافة والتنطع في الطهارة . وراجت عليهم لقلة العلم الاحاديث الموضوعة . وذكر بعد هذا تصانيفهم وما فيها من الغلو في الدين والاحاديث الباطلة . ثم انتقل الى بيان ضروب التلبيس عليهم وما خالفوا فيه الشرع عن جهل أو تأول وأطال في ذلك ، وكتابه

هذا جدير بأن يطبع

ولشيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية فتوى في الصوفية والفقراء نشرناها في ج ١٠ م ١٢ من المنار ثم طبعناها في رسالة على حدتها لتعميم نفعها . وقد ضعف فيها القول بنسبتهم الى صوفة لأنها قبيلة كانت في الجاهلية ولا وجود لها في الاسلام ورجح نسبتهم الى الصوف وقال ان لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاث وانما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقال ان أول ظهورهم كان في البصرة لانه كان فيها من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك مما لم يكن في سائر الامصار ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية . وذكر بعض أحوال الصوفية ووزنها بميزان الشرع وسيرة السلف الصالح كعادته فبين الراجح من الشائل فيها وان الناس فيهم بين ذام يرميهم بالابتداع والخروج عن السنة وبين غال يدعى انهم أفضل الخلق بعد الانبياء ، وان الصواب هو الوسط وهو انهم كغيرهم من الطوائف مجتهدون فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ولكن انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ثم بين أن كلامه في صوفية الحقائق الاولين ، وانه حدث بعدهم صنفان وهم صوفية الارزاق الذين يقيمون في الخوانك ويأكلون فيها ما وقف على الصوفية ، وصوفية الرسم الذين همهم تقليدهم في اللباس والآداب الوضعية ، ويسهل على السائل أن يراجع هذا الفتوى ويقرأها ويقرأ ما كتبه ابن خلدون في مقدمته ان لم يكن قرأه فان اكثره صواب

واننا قد ذكرنا في تاريخ الاستاذ الامام عيون ما ذكره هؤلاء المحققون في بيان حقيقة الصوفية وزدنا عليهم مسائل مهمة استنبطناها من كتبهم ومن كتب التاريخ أجملناها في ورقتين مثل اوراق المنار ملخصها ان الصوفية طائفة انقطعت الى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة برياضة النفس وتربية الارادة والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس وحسن النية والمبالغة في العبادة . وغايتهم الوصول الى تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله تعالى . ثم ادعى حالهم من ليس منهم غشا وتلبيسا ، ولبس لباسهم من تناقض حاله حالهم دعوى وتقليدا — وان رياضة النفس وتزكيتها تثمر للصادق فيها علما وعرفانا بسنن الله في الارواح واسرار قواها واحوالا واذواقا غريبة غير مألوفة

ولا معروفة لغير اهلها (ومنها) التأثير بقوة الارادة في بعض امور الكون كشفاء مريض وتنفير من الشر وجذب الى الخير ويسمونه التأثير بالارادة او الهمة (ومنها) معرفة بعض الامور من غير طريق الحس او الفكر وهو مايسمونه الكشف (ومنها) الغوص على دقائق اسرار الشريعة وحكمها وصفات النفوس البشرية وقواها وعللها الخ ومنها غير ذلك مما لاحاجة الى ذكره هنا

وان هذا التصوف برياضة النفس قد سبق المسلمين اليه قدماء الهنود والصينيين واليونان؛ وقد سرى الى المسلمين كثير من بدع أولئك الاقوام وضلالاتهم شعائرهم وشاراتهم (كالسبح والاعلام) حتى انهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود فصارت غاية الطريق عندهم. وبث الباطنية في التصوف ضلالات أخرى شر أصولها التأويل البعيد للآيات والاحاديث وطاعة الاذعان لكل ما يأمر به السالكين شيوخهم وان كان منكرا وعدم الانكار عليهم في شيء. وكانت الباطنية تقصد بهذا التعاليم افساد دين الاسلام وابطاله وازالة ملكه بالدسائس التي وضعها عبد الله ابن سبأ اليهودي وجمعيات المجوس السرية التي بثت في المسلمين دعوة الغلو في التشيع لآل البيت والطعن في أعاظم الصحابة لافساد دين العرب وتقويض دعائم ملكهم بالشقاق الداخلي لتتمكن تلك الجمعيات بذلك من اعادة ملك المجوس وسلطان دينهم اللذين ازالهما العرب بالاسلام. ولولا هذان الاصلان — التأويل والطاعة المطلقة — لما راجت الضلالات والبدع في هذه الطائفة لان أصل طريقتها تزكية النفس بالعلم والعمل الشرعيين مع الصدق والاخلاص والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس حتى على الخواطر، ومن المأثور المشهور عن أئمة الصوفية قولهم : التصوف أخلاق فمن زاد عليك في الاخلاق زاد عليك في التصوف. ومن قواعد الاسلام المنصوصة المعلومة منه بالضرورة انه «لاطاعة في معصية انما الطاعة في المعروف» وهذا اللفظ من حديث مرفوع في الصحيحين وغيرهما عن علي كرم الله وجهه وفوقه قول الله تعالى لرسوله (ص) في آية المبايعة (ولا يعصينك في معروف)

ثم بينا هنالك أنه لاسبيل الى تصفية التصوف من البدع الا بتحكيم الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح فيه قبولا وردا بعد بيان أن الضلالات

والبدع المتغلغلة في كتب الصوفية قسمان — ما أخذه الباطنية من صوفية البراهمة واليونان ودسوه في التصوف الاسلامي وليس له أصل في الكتاب ولا في السنة الا ما زعموه من التأويلات المخالفة للغة والشرع — وما أحدثه بعض شيوخ الطريقة من الاوراد والشعائر الدينية المخالفة للسنة في ذاتها وأصلها أو في صفتها وطريقة أدائها، حتى ان بعض كبار الفقهاء والمتكلمين روجوا بعض هذه البدع والآراء بالتأويلات والتوسع فيما جوزه بعضهم من العمل بالحديث الضعيف في فضائل الاعمال ولم يراعوا ما اشترطه المحققون في هذا من الشروط — فترى مثل الغزالي من أكبر أئمة علماء الكلام والفقه يرغب في بعض العبادات المبتدعة مستدلا عليها بهذه الاحاديث الواهية أو الموضوعة دع ما يتعلق منها بالاعتقاد

مثال ذلك صلاة الرغائب في رجب وصلاة ليلة نصف شعبان ذكرهما الغزالي في الاحياء مستدلا عليهما بما ورد فيهما وهو موضوع وقد قال فيهما النووي في منهاجه: وصلاة رجب وشعبان بدعتان قبيحتان مذمومتان . ولم يكن النووي أعلم بفقه الشافعي من الغزالي بل قال بعض العلماء ان كتب الشيخين الرافعي والنووي مأخوذة من كتبه التي حرر بها المذهب كما قال فيه وفيها بعضهم :

حرر المذهب حبر أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

ولكن النووي كان أعلم منه بالسنة فان الغزالي لم يتوسع في علم السنة الا في آخر عمره (ونعمت الخاتمة التي وفقه الله لها بحسن نيته واخلاصه له الدين) ولعله لم يؤلف بعد ذلك شيئاً .

فهذا مثال ما أخذوا فيه بالموضوع . ومما أخذوا فيه بالضعيف الواهي — وهو أكثر — دعاء الوضوء قال في المنهاج : وحذفت دعاء الوضوء اذ لا أصل له . يعني الدعاء الذي ذكره الرافعي تبعاً للغزالي . واعتذر الشمس الرملي شارح المنهاج عنه بأنه يعني انه ليس له أصل صحيح أو لم يكن مستحضراً لما ورد فيه من حديث ضعيف ورد من طرق والضعيف يعمل به في الفضائل ما لم يشتد ضعفه فيما له أصل صحيح كلي ولكن لا يستدل به على السنية - هذا ما ذكره عنه بالمغني وذكر أن والده الشهاب الرملي اعتمد دعاء الوضوء - وأقول ان النووي

نفى ورود شيء من السنة في دعاء الوضوء في مواضع من كتبه ومنها الاذكار وتعقبه صاحب المهمات فقال ليس كذلك بل روي من طرق منها عن أنس رواه ابن حبان في ترجمة عباد بن صهيب، وقد قال أبو داود انه صدوق قدري وقال أحمد ما كان بصاحب كذب. وتعقبه الحافظ ابن حجر فقال لو لم يرد فيه الا هذا لمشى الحال ولكن بقية ترجمته عند ابن حبان: كان يروي المناكير عن المشاهير حتى يشهد المبتدئ في هذه الصناعة (أي رواية الحديث) انها موضوعة، وساق منها هذا الحديث اه وقال الذهبي في ترجمته من الميزان: وروى عن حميد عن أنس بخبر طويل في الذكر على الوضوء باطل الخ

أقتصر على هذين الشاهدين من الاخذ بالاحاديث الموضوعة والواهية لنصوص الفقهاء فيهما وهم الذين يعول الجمهور على كلامهم ويرجحونه على كلام سائر العلماء فيما اختلفوا فيه لانهم هم الذين انتدبوا لتحرير فقه الائمة الذين يدعي الناس تقليدهم وكانت الحكام تحكم بما دونوه في كتبهم ولا تقبل الفتوى الا منها حتى صار جماهير المنتسبين الى طرق الصوفية يتبعون هؤلاء الفقهاء وان كان الصوفي الحقيقي — وهو العارف بربه العالم بدينه العامل به — لا يقلد احدا. وقد احتكر الفقهاء لانفسهم حق ترجيح أقوالهم على أقوال المفسرين والمحدثين، بله الصوفية والمتكلمين، كما صرح به ابن حجر الهيثمي في الفتاوي الحديثية. وكان الصواب أن يحكم علماء الآثار من التفسير والحديث وسيرة سلف الامة في كل خلاف وتنازع يقع بين المسلمين ليبينوا لهم حكم الله ورسوله فيه عملا بقوله عز وجل (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) ولا خلاف بين أحد من العلماء في معنى هذا الرد بل هم متفقون على أن الرد الى الله هو الرد الى كتابه والرد الى الرسول بعد وفاته هو الرد الى سنته. وعلماء الآثار هم المختصون بعلم ما صح في التفسير ومن سنة الرسول (ص) وسيرة السلف وكثيرا ما يأخذ الفقهاء بما لا يصح من الاحاديث وقد يحكمون بالقياس مع وجود النص بل يأخذون بأقوال المصنفين المنتمين الى مذاهبهم وإن لم يعرفوا لها دليلا ولا نصا من كلام أئمتهم المجتهدين ولا سيما المتأخرين منهم وقد أعطوا المشتغلين بكتبهم سلاحا يحاربون به نصوص الكتاب والسنة اعتذارا بالتقليد فكل كتاب ينتمي مصنفه الى مذاهبهم يحتج به عندهم ويعمل بما فيه ولكن لا يجوز الاهتداء عندهم

بالكتاب ولا بالسنة الا من هداه الله ووفقه، ولم تضل أمة من أمم الرسل عن دينها أبعد من ضلال هؤلاء ولولا حفظ الله لكتابه وتوفيقه الحفاظ لتدوين السنة لتعذر الاصلاح ومعرفة حقيقة الاسلام . وقد سبق لنا بيان هذا مرارا كثيرة آخرها ما بسطناه في الكلام على فتوى شيخ الازهر في انكار بعض البدع وما فصلناه في الفتوى الاولى والثانية من جزئي المنار اللذين قبل هذا

وجملة القول في صوفية المسلمين أن علماءهم كسائر أصناف علماء المسلمين الذين استعملوا عقولهم في الدين من المتكلمين والفقهاء كل صنف قد انفرد بالتوسع في علم فجاء فيه بما لم يجيء به غيره وكل منهم أخطأ وأصاب فالصوفية اتقنوا علم الاخلاق والآداب الدينية وحكم الشريعة واسرارها وطرق تزكية النفس واصلاحها ـ وهذا غرض الدين ومقصده فان كانوا قد غلوا وأتوا ببعض مايخالف النصوص ودخل في كتبهم وأعمالهم من تصوف الامم السالفة ومن البدع مايكره الاسلام فالمتكلمون أيضا قد دخل في كتبهم مثل ذلك من الفلسفة اليونانية وغيرها من البدع المخالفة للنصوص ولما كان عليه السلف وكذلك الفقهاء قد دخل في كتبهم مثل ذلك بالرأي والقياس والاخذ بالاحاديث الضعيفة والموضوعة . وكل من في هذا العصر من المنتحلين لطرق الصوفية فهو منتم الى أحد مذاهب الفقهاء والمتكلمين فلو صلح حال المشتغلين بعلم الفقه لامكنهم إصلاح أهل الطريق، وأنى يصلح غيره من لم يصلح نفسه؟ وأنى يصلح نفسه أو غيره من اتخذ علم الدين حرفة للارتزاق به فهو يخدم و يطيع من يعتقد أو يظن أو يتوهم أن أمر رزقه بيده ولو فيما يضر ملته وأمته ؟

من هذا البيان الوجيز المفيد يعلم السائل حقيقة التصوف وان له كتبا تشبه القوانين أكثر ما فيها منصوص أو مستنبط من الشرع أو غير مخالف له و بعضها بدع تلصق به إلصاقا بشبهات وتأويلات باطلة . وأحسن الكتب في تصوف الحقائق وأسلمها من مخالفة الكتاب والسنة فيما نعلم كتاب مدارج السالكين .

وأما سؤال السائل عن وجه الحاجة اليه مع وجود الكتاب والسنة فجوابه ان علمي الكلام والفقه يشاركان التصوف في هذا السؤال وجوابه فكما شعر المسلمون بالحاجة الى تصنيف الكتب في بيان أصول العقائد التي تستند الى الكتاب والسنة للتمييز بينها وبين البدع

وإثباتها بالادلة النظرية الفنية التي كانت مألوفة بانتشار كتب الفلسفة وورد شبهات المخالفين على هذه العقائد — وكما شعروا بالحاجة الى تدوين علم الاحكام الشرعية في العبادات والمعاملات لايضاح ماجاء في الكتاب والسنة من النصوص وما يمكن ان يستنبط منها ولو بطريق القياس الذي احتج على اثباته بعضها — كذلك شعروا بالحاجة الى تدوين الكتب لبيان طريقة التربية والتأدب بالآداب المنصوصة فيهما أو المستنبطة منهما والمفصلة لما فيهما من الاجمال. وقد قلنا آنفا إن ماوقع في كتب الصوفية من المخالفة لبعض نصوصهما وسيرة السلف الصالح الذين أجمعت كل الفرق على تفضيلهم وخيريتهم وقع مثله في كتب المتكلمين والفقهاء. يعلم ذلك من كتب السنة ومن الكتب التي يرد فيها كل منهم على الآخر، والفقهاء المقلدون يوجبون طاعة شيوخهم الذين التزموا تقليد مذاهبهم ويجعلون كلامهم أصلا في الدين يردون به نصوص الكتاب والسنة بتأويل أو غير تأويل كما يوجب المتصوفة طاعة شيوخهم المسلكين ويؤولون ماخالفوا فيه الشرع ولكن لايقولون انه أصل في الدين يجب على الناس اتباعه شرعا بل شبهة هذه الطاعة عندهم ان التربية المرادة من سلوك الطريقة تتوقف على هذه الطاعة موقتا لادائما وأن كلامهم في الحقائق رموز لايفهمها غيرهم

وقد ذكر المحقق ابن القيم في كتابه (اعلام الموقعين) أمثلة كثيرة لما خالف فيه المقلدون للمذاهب المشهورة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة اتباعا لاقوال شيوخهم واحتجوا لهذه الاقوال بالاقيسة أو بجعل المتشابه أصلا للمحكم أو بأحاديث لاتصح ولايحتج بها بحسب القواعد الاصولية ومنها ما احتجوا له بعبارة من حديث صحيح يردون باقيه المخالف للمذهب وهذا من عجيب أمرهم كما قال وقد أورد له ستة وستين شاهدا في الوجه التاسع عشر من وجوه الرد على المقلدين التي بلغت ٨١ وجها فليراجعها السائل ومن شاء في الفصل المعقود للكلام في القياس والتقليد من الجزء الاول من هذا الكتاب الجليل .

ثم انه عقد بعد هذا الفصل فصلا آخر في « تحريم الافتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص وسقوط الاجتهاد والتقليد عند ظهور النص وذكر اجماع الفقهاء علي ذلك » وقد أورد في هذا الفصل ٧٧ مثالا لرد أهل المذاهب السنة الصحيحة

الصريحة المحكمة بالقياس أو بغير الصحيح أو بالمتشابه ، وذكر في الوجه الثامن منها بعض شبهاتهم ورد عليها باثنين وخمسين وجها كلها شواهد تؤيد ماذكرناه

فاذا كان الامر كذلك فلماذا يخشى السائل كسوف شمس الشريعة في أفق الصوفية دون غيرهم وهو يعلم أن المنتحلين لطرق التصوف والمنتحلين لمذاهب الفقه لاتزييل بينهم ولا تمييز - فلا هؤلاء على هدي أئمة الفقه من علماء السلف كمالك والشافعي، ولا أولئك على هدي أئمة التصوف كالجنيد والشبلي وأمثالهم من عباد السلف. فالحق أن جميع الفرق لها حسنات وسيئات (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين) وأكثر مسلمي هذا العصر ضعفاء في الدين علما وعملا ولاسيما في البلاد التي ليس فيها حكومة اسلامية تقيم الحدود وتلتزم الشرع ، والبلاد ذات الحكومة الاسلامية على قلتها بعضها شديدة التعصب لمذهب معين كالبلاد الافغانية المتعصبة لمذهب الحنفية وحكومة اليمن المتعصبة لمذهب الزيدية فهذان لايرجى أن يكون فيهما اصلاح اسلامي عام لاستحالة اتباع جميع المسلمين لهذا المذهب أو ذاك — وبعضها شديد الغلو في العمل مع ضعف في العلم كبلاد نجد ولكن لهذه مزية لا نعرفها لبلاد أخرى من بلاد المسلمين في هذا العصر وهي أنهم وان كانوا منتمين الى مذهب الامام أحمد فلا نعرف جماعة من جماعات الاسلام غيرهم تقبل اتباع كل ماثبت في الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وتدعو اليه وترد ماخالفه وان قاله أو كتبه حنبلي مثلهم، ومع هذا يرميهم كثير من المسلمين بالابتداع والضلال ومنهم من يكفرهم كما يرمون بذلك من يدعو الى الكتاب والسنة من الافراد . وأي بلاء أشد على الاسلام من هذا ؟ واذا قيض الله لهذه البلاد أن يتسع فيها العلم فانها تحيي الاسلام في جزيرة العرب ومن ثم يتجدد في سائر العالم فيعود الامر كما بدأ .

قال صلى الله عليه وسلم « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » رواه مسلم عن أبي هريرة والنسائي عن ابن مسعود وابن ماجه عنهما وعن أنس . وروى مسلم من حديث ابن عمر مرفوعا « ان الاسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ ويأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها » وفسر الغرباء في حديث آخر مرفوع بقوله « الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي » رواه الترمذي من حديث عمرو بن عوف المزني . صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد عاد الاسلام غريبا كما بدأ حتى صار

المسلم الحق المحيي للسنة غريبا مطعونا في دينه ، فاذا قوي هؤلاء الغرباء الذين يحيون ما أمات الناس من سنته (ص) واعتزوا بعد ضعفهم الذي هو عليه اليوم كما كان سلفهم في بدئه فان غربته تستتبع المجد والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين آخرا كما استتبعته أولا لاتحاد السبب

ان العالم الاسلامي ليئن من ضعف دينه وامتهان شعوبه بامتهانه ، وانه لتبرم من سوء حال سادته وكبرائه والمنتحلين لعلم الدين ومن جهل أكثرهم بما يجب له من الخدمة في هذا العصر وقعودهم عنها حتى امتهنوا وسقطوا من مكانتهم الاجتماعية ولم يبق بأيديهم من مصالح لامة شيء يعتد به، بل وطنوا أنفسهم في بعض البلاد على الحرمان منها ورضوا بعدم مشاركة غيرهم حتى بالبحث فيها — وانه سيضطر علماء الازهر وأمثالهم من معممي سائر الاقطار الى الاصلاح الذي كانوا يقاومونه وانما يضطرهم الى ذلك باحتقاره لما هم عليه اليوم اذ قرب ان يزول ما كانوا يعتزون به من اتباع السواد الاعظم من العوام لهم وتقبيلهم لايديهم ومواساتهم بالهدايا والصدقات والوصايا، فبهذا كانوا اذا قام فيهم مصلح كالسيد الافغاني الحكيم والاستاذ الامام همسوا في آذان هؤلاء العوام : هذا معتزلي هذا فيلسوف هذا كافر يريد أن يفسد عليكم دينكم ، فحافظوا على تقاليدكم وموالدكم واستغاثتكم بأهل القبور الذين يتوسطون لكم عند الله بدفع النقم وحفظ النعم — التي جعلتكم وراء جميع الامم

نعم أوشك أن يزول ذلك بل زال الا قليلا وقد رأينا ما كان من تأثير موت الاستاذ الامام وموت غيره من أكابر الشيوخ الذين تولوا منصب الافتاء مثله وتولوا ما لم يتول من مشيخة الازهر — اضطرب القطر المصري واهتز العالم الاسلامي كله لموت الاستاذ الامام باشد مما اضطربت بيوت أولئك الشيوخ لموتهم الذي لم يشعر به العالم الاسلامي وما ذاك الا لانهم كانوا يعيشون لانفسهم و بيوتهم وكان يعيش لامته وملته

سبقت الهند مصر وسورية والحجاز في احياء السنة علما وعملا وقد تمهدت العقبات امام مصر و بدت طلائع الاصلاح في ناشئة الازهر ولكن الحركة فيه لاتزال بطيئة ولا تسرع بها الا صدمات المعارضة والمقاومة لها وحينئذ تجد من طلاب

الاصلاح الديني والدنيوي أعوانا وأنصارا تجربها ويتعاون رجال الدين ورجال المدنية على الاصلاح الاسلامي الديني المدني ويظهر صدق قولنا في المقصورة بعد التنويه بما قام به الاستاذ الامام من الاجتهاد في اصلاح الازهر

فان يك الازهر لم يصلح بها فقد نأي عن سبل من كان مأى (١)
ونبتت من غرسه نابتة ستلأم الصدع وترأب الثأى
وترفع الحجر عن المعهد أو يعود جحر الضب رحبا كالفضا (٢)
اذاً ينال وهو قد أشفى الشفا من معضل بات به على شفا
ثمت ولى المصلحون شطره ينحونه من كل فج ورجا
ماوردوا حياضه وصدروا الا يفيضون علوما وهدى
فاحيوا الاسلام في انفس من دأناهم بهجره صرف الردى
فعاد آهلا الى موطنه من غربة طال بها عهد النوى
واستتبعت غربته المجد كما كان فعاد الامر مثلما بدا

فتبين بهذا ان خوف السائل على الاسلام من بدع خلف المتصوفة هو من قبيل توقع الواقع وانما يتلافى هذا الواقع فيهم وفي غيرهم بتجديد يكون سريعا اذا أيدته حكومة اسلامية وبطيئا اذا لم يتح له ذلك في بدء التجديد . وانما يكون التجديد بالتعارف والتعاون بين الطائفة التي بشر النبي (ص) بأن أمته لا تخلو من وجودها فانها الآن متفرقة في البلاد مامن قطر الا وفيه أفراد منها ففي حديث ثوبان في الصحيحين وكتب السنن « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » وفي معناه أحاديث أخرى

وأهم القواعد التي يجب بناء الاصلاح عليها هي

(١) الاعتراف باسلام كل مذعن لما أجمع عليه المسلمون من أمر الدين

---

(١) مأى بالغ وتعمق أي بعد عن طرق المتاخرين المتنطعين المتعمقين في مباحث عبارات الكتب (٢) أي الى أن يعود جحر الضب الذي دخلوا فيه باتباع سنن من قبلهم واسعا بسهولة الحنيفية السمحة ، اشارة الى حديث ابي سعيد الخدري المتفق عليه « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتي لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » هذا لفظ البخاري ولفظ مسلم « حتى لو دخلوا في حجر ضب لتبعتموهم »

(٢) بث دعوة العمل بهداية الكتاب والسنة الصحيحة وسيرة السلف الصالح فيهما كما أثبته علماء الحديث بالاسانيد المعتمدة وترك ما خالفه من أنظار المتكلمين وآراء الفقهاء ولانزيد في أمور العبادات والحلال والحرام على ذلك ولا ننقص منه ، وقد بينا حجج هذه المسالة مرارا . وليس معنى هذا ان يكون المهتدي بذلك اماما مجتهدا بل ان يكون على بصيرة من دينه على طريقة السلف عوامهم وخواصهم مع الاستعانة على فهم النصوص بما فسرها به العلماء

(٣) عدم التعصب لبعض المذاهب على بعض وذلك بأن نعذر كل متبع لامام من أئمة السلف المجتهدين في حكم من الاحكام من أئمة آل البيت كزيد بن علي والصادق والباقر وأئمة فقهاء الامصار كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأئمة الصوفية كالجنيد ، وعلماء الصحابة والتابعين بالاولى . ولانكفر مسلما مذعنا بذنب ولا بدعة ارتكبها بجهل أو بشبهة اتباع امام أو بتأول . ومتى زال التعصب تكون المناظرة بين المختلفين في ذلك بالدليل الشرعي مع الادب والاحترام واتقاء الشقاق والتفرق بين المسلمين ، ويتبع دعاة الاصلاح في ذلك قاعدة الامام مالك : كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه الاصاحب هذا القبر - يعني النبي (ص) فلا يتعصبون لشخص معين غير الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولا لجماعة غير الصحابة رضوان الله عليهم فما أجمعوا عليه فلا مندوحة عن اتباعه وما اختلفوا فيه يرجح فيه ما كان دليله أقوى والآخذون به من التابعين وسائر علماء السلف أكثر فانه قلما يسلم عالم مجتهد من شذوذ ينفرد به دون الجماعة فيعذر باجتهاده ولا يتبع فيه ولعلنا نكتب في فرصة أخرى مقالا في شذوذ كبار العلماء الذين خالفوا الجمهور ليكون شرحا لقاعدة الامام مالك رحمه الله تعالى

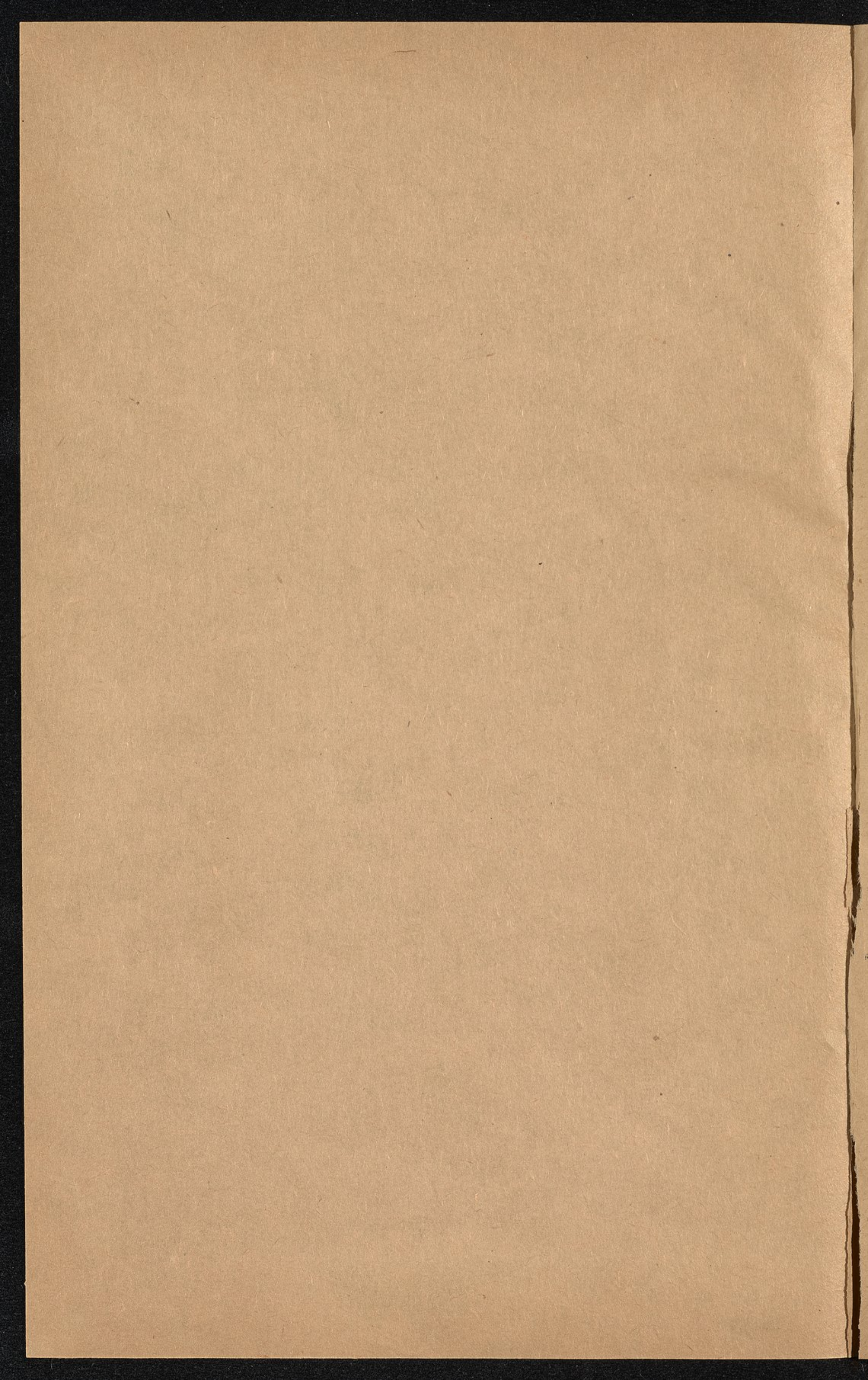
(٤) الاستعانة بارشاد الكتاب والسنة على الاصلاح الدنيوي مع تحصيل العلوم والفنون التي ترتقي بها الزراعة والصناعة والتجارة والقوى الحربية فان هذا مفوض الينا بتلك الهداية التي نصت على أن الله خلق لنا ما في الارض جميعا وامرتنا بأن نعد لحفظ دعوة الحق ما نستطيع من قوة . وقال رسولنا صلى الله عليه وسلم « انما أنا بشر مثلكم اذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » وقال « أنتم أعلم بامر دنياكم » رواهما مسلم في صحيحه

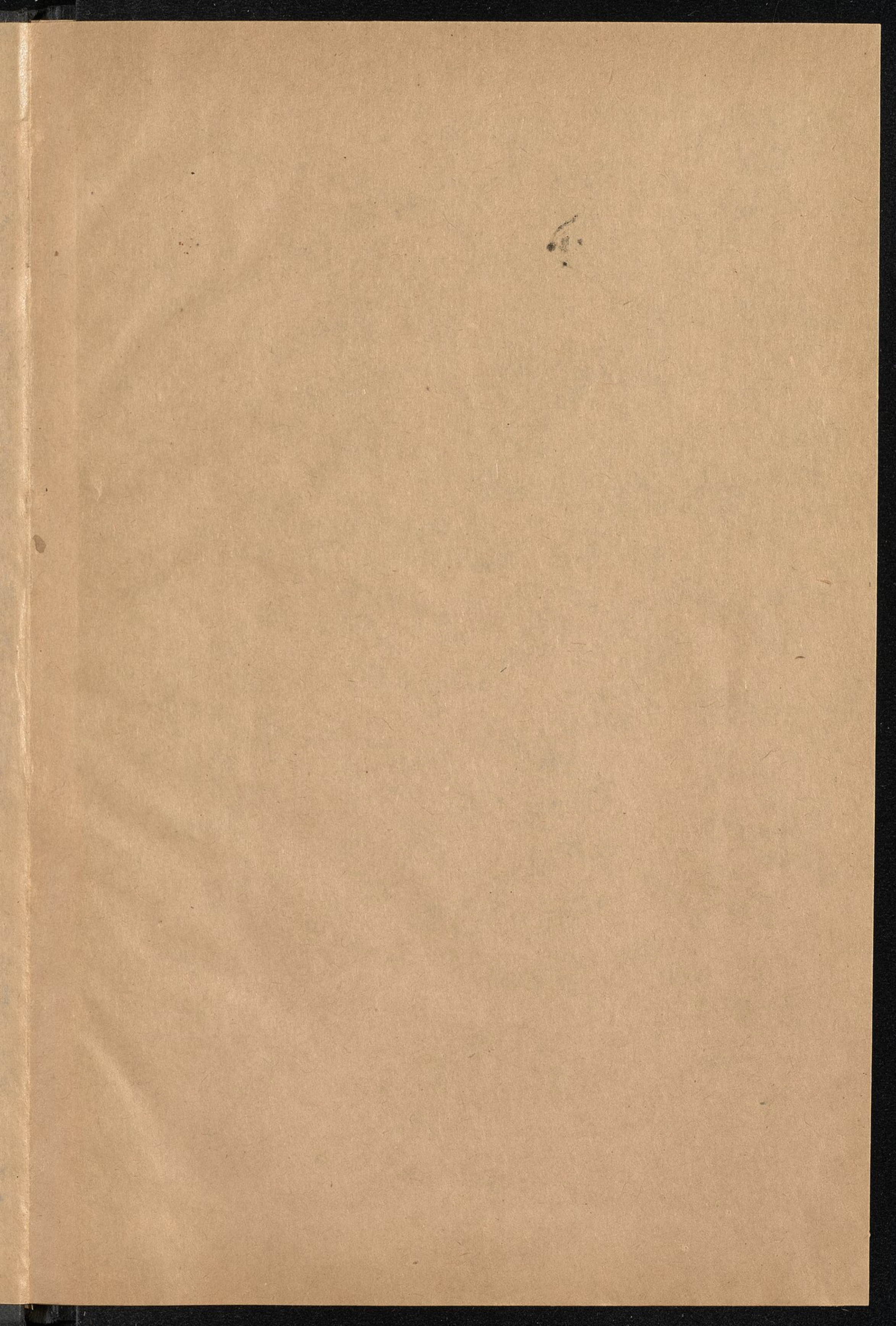
ولهذه المسائل تفصيل شرحناه في المنار مرارا بل كان المنار في جملته وتفصيله دعوة الى الاصلاح الاسلامي المبنى على أساس اتباع جمهور السلف الصالح في أمور الدين رواية ودراية وعملا بلا زيادة ولا نقص - ويا ليتنا نبلغ مدّ أحدهم أو نصيفه - واتباع ما تقتضيه المصلحة ويثبته العلم والاختبار في أمور الدنيا مطلقين لاجتهادنا العنان فيه - وهذا اتباع للسلف فيما فهموه من هدي الكتاب والسنة أيضا كما يعرف من سيرتهم في فتح البلاد وانشاء الدواوين وتمصير الامصار وتدوين العلوم والفنون والعمل بها. وهو مذهب امام دار الهجرة مالك ابن أنس كما بينه الشاطبي في الاعتصام وغيره (ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

خاتمة

نسأل الله حسنها

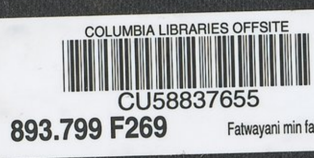
هذا ما رأينا أن نطبع من فتاوى المجلد الثاني والعشرين من المنار على حدته وننشره في رسالة مستقلة رجاء زيادة انتشاره والانتفاع به . وهو قول وسط في دين الامة الوسط تقوم به الحجة على الغلاة أهل الافراط في الدين الذين يحبون التشديد وزيادة أحكام التكليف ، والمبالغة في التحريم والتكفير ، وفي ذلك ما فيه من المخالفة لاصول اليسر ورفع الحرج وعدم الاعنات في الاسلام الذين هو دين الفطرة ، والملة الحنيفية السمحة - وعلى العصاة أهل التفريط في الدين المتبعين لاهوائهم ، النابذين هداية الدين وراء ظهورهم ، وعلى جميع المبتدعين في هذا الدين سواء كان بالزيادة فيه أو النقص منه ، وانما ينتفع بهذا البيان أولو البصائر والفطر السليمة والعقول النيرة المميزة . الذين قال الله تعالى فيهم (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ، نسأل الله أن يكثر سوادهم في هذه الامة ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ، محمد وآله وصحبه





893.799
F269

AUG 18 1955


COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58837655
893.799 F269
Fatwayani min fatawa

893.799 - F269